التربية عند العرب

خليل طوطح

الكتاب: التربية عند العرب

الكاتب: خليل طوطح

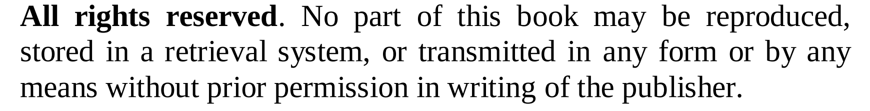
الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com



دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

طوطح ، خليل
التربية عند العرب/ خليل طوطح
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٩٩ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ١٤٥ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٢٠٢ / ٢٠١٩

التربية عند العرب





مقدمة

درسنا موضوع التربية عند العرب تلذذا به وقدمناه كأطروحة للدكتوراه في جامعة كولمبيا قبل بضع سنوات، وهي التي اهتمت بطبعه عندئذ تحت عنوان The Contribion Of The Arabs To EducaTion وقمنا الآن بطبعه بلغة الناطقين بالضاد تقدمة لمعشر العرب . لا للتغني فقط بمحامد السلف بل للاتعاظ في الأحوال الحاضرة والتيقظ في المستقبل . ولنا ملء الأمل أن نكون في طبع هذه الرسالة قد خدمنا مصلحة التربية عند العرب في نقد عيوبها ولزوم تجنبها في الوقت الحاضر مع إظهار حسناتها الكثيرة وتحبيذها إبان النهضة العربية الحديثة .

في هذه الأيام التي يتحفز فيها العرب للنهوض والاستقلال يجدر بهم أن يضاعفوا اهتمامهم بشئون التربية لا سيما تربية العامة ، فمن أهم الضروريات اليوم للعرب تربية عامتهم وتثقيف أخلاق الفلاحين والقرويين وعدم الاكتفاء بفتح المدارس في المدن مثل القاهرة والاسكندرية ودمشق وبيروت والقدس وبغداد . وعلى التربية أن تعم كل فرد من أفراد الأمة ذكورا وإناثا ، فتكون كالخمير الذي يخمر كل ذرة من الدقيق ويتحتم علينا أيضا أن نجعل تربيتنا كالهرم المؤسس على قاعدة متسعة وأساس متين وذلك بتعليم كل العامة وتشييد المدارس الثانوية والفنية والعالية على أساس ثابت من التعليم الابتدائي. العرب اليوم أحوج إلى التعليم الابتدائي منهم إلى التعليم الثانوي والعالم لأنهم إذا أهملوا المدارس الابتدائية وتركوا الأكثرية الساحقة من الأمة في جهالة عمياء وعلموا الفئة القليلة من الخاصة قلبوا الهرم رأسا على عقب وعرضوا كيانهم القومي للتزعزع .

يشوب التربية اليوم في الأقطار العربية إقبال الطلاب عليها لتحصيل المعيشة فقط، ويشين المعلمين التعليم للارتزاق، فنشير على كل من يريد أن ينتمي إلى

العلم والتعليم بأن يطهر قلبه من هذا الدنس وينهل المورد الصافي الذي انتهله الغزالي وغيره من كبار المربين عند العرب الذين طلبوا العلم وعلموه لوجه الله. فما دام طلبة العلم يطلبونه للتعيش والمعلمون يقبلون عليه للارتزاق فقط فعلى التربية الحقة والنهوض والاستقلال السلام.

نعم إن من وظائف العلم مساعدة أهله على تحصيل معايشهم، غير أن من اكتفى بسد حاجات جسده بقي في طبقة الحيوان لأن العلم والتربية غرضهما الأسمى تثقيف النفوس والتلذذ بالمعنويات والروحيات، وبالإجمال رفع الإنسان من مستوى البهائم إلى مستوى الآلهة، فمن العبث إذا محاولة العرب النهوض دون رفع مستوى العامة وتهذيب أخلاقها، لأن الاستقلال والعامة الجاهلة نقيضان .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا.. ساد العرب ونشروا العلم وأسسوا المدارس على أساس لغوي متين، فكانت لغتهم عاملا كبيرا في سير ثقافتهم ، فعلينا اليوم أن نقتدي بهم في ذلك ، إذ يستحيل علينا أن ننهض على لغة أجنبية وثقافة غربية ، من الضروري للتربية العربية الحديثة أن تعمل على تعزيز اللغة العربية وأن تجعلها لغة التدريس في كل المدارس .

إن للتربية العربية ثلاثة مسالك: فإما التمسك بالمدنية العربية القديمة التي وقفت عند عقلية العصور الوسطى وبعملها الرجعي هذا تكون قد أبت خوض غمار المدنية العصرية مدنية هذا القرن ، وإما الاقتداء بالأتراك الذين دانوا بدين الحضارة الغربية.. غثها وسمينها صالحها وفاسدها، ولم يخطر ببال زعمائهم أن المفكرين في الغرب غير راضين عن مدنيتهم جادون في نقدها وقلبها واستبدالها بحضارة أفضل، فإن نحا العرب نحو الترك كانوا قد ارتدوا ثوبا كاد الغرب أن ينبذه للبحث عن آخر أفضل منه .

وأما اتخاذ خطة غربلة الغث من السمين والفاسد من الصالح من التربيتين العربية والإفرنجية والاحتفاظ بما صلح منهما وحسن .

ونبذ ما لم يصلح وهذا يكون خير ما يعمله العرب بهذا الشأن، فإن فعلنا هذا نكون قد تمسكنا بأفضل تقاليدنا وتراث قومنا ولقحناه بأجود ما نبغ به الغرب، وسرنا في مضمار الحياة العصرية دون أن نضحي بكياننا وقوميتنا العربية

وفي الختام لا يسعني إلا أن أسجل شكري للسادة عبدالله مخلص عضو المجتمع العلمي العربي بدمش وحبيب خوري أستاذ اللغة العربية في الكلية العربية بالقدس وفريد تابري أستاذ اللغة العربية في مدرسة الفرندز برام الله وعبدالحميد ياسين أحد طلاب الصف المنتهي في الجامعة الأميركية في القاهرة لما لقيته منهم من العطف والنقد والمساعدة في إعداد هذه الرسالة للطبع والسلام .

خليل طوطح
رام الله ـ فلسطين



الفصل الأول

المدارس

القراءة والكتابة

ذكر البلاذري في فصله المسمى بأمر الخط أنه "دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب". ثم استشهد برواية الواقدي التي نصها :

"جاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون".. هذا ومع أن النبي كان أميا ، فقد أظهر تقديره للعلم بقبوله من أسرى قريس أن يفدي الواحد منهم نفسه بتعليم عشرة من أولاد المسلمين . ومما يؤيد هذا ما قاله المبرد: "وفادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى فداءه من أسرى بدر . فمن لم يكن له فداء أمره أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة .

ففشت الكتابة في المدينة " وقد روى البلاذري أيضا أن النبي محمدا قال للشفاء بنت عبدالله العدوية من رهط عمر بن الخطاب : " ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة " ؟ وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية يظهر من ذلك أنه – وإن كانت الأمية ضاربة أطنابها في القسم الشمالي من الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام –كان لدى العربي

بعض وسائط لتعلم القراءة والكتابة ، وإن عددا من رجالهم ونسائهم قرأوا وكتبوا أو عرفوا القراءة دون الكتابة . تلك كانت الحالة في شمال الجزيرة . أما في جنوبها –أي في اليمن – فإن أمر القراءة والكتابة كان أكثر انتشارا كما يستنتج من ألوف الرقم الموجودة الآن من آثار عرب اليمن .

القرآن والتعليم

قلنا إن القراءة عرفت في الجزيرة قبل الإسلام، غير أنها لم تكن عامة حتى ظهور القرآن، وليست علاقة القرآن بالقراءة بعلاقة صرفية اشتقاقية فقط بل هي علاقة تاريخية أيضا، لأن تطور القراءة والتعليم والتربية راجع إلى القرآن؛ فهناك تسلسل وارتباط لا يستهان بهما. وكما أن النصارى واليهود أقبلوا على تعليم القراءة وفتح المدارس في الشرق والغرب لقراءة الكتب الدينية، كذلك تفانى المسلمون في نشر التعليم لتعلم القرآن. قرأ أولئك القوم وكتبوا أولا لأنهم سبقوا في كونهم "أهل الكتاب" ولم تقرأ الجاهلية لأنها لم تكن من "أهل الكتاب" أما وقد جاء النبي العربي، وأنزل القرآن على العرب، وأصبح لهم مرجعا في أمور العبادة والشرع والحياة الاجتماعية والسياسية، فقد اضطروا إلى التعلم للوقوف عليه فالفضل الأكبر إذا في انتشار القراءة والكتابة وتأسيس المدارس عند العرب راجع إلى القرآن وإذا اتبعنا المجاز في التعبير قلنا إنه كان البراءة الأولى للتربية عند العرب.

غير خاف أن الظروف السياسية مثل النزاع في الخلافة والفتوح عاقت فتح المدارس في العصر الأموي ، إذ كان هم الأمويين الأول إكراه خصومهم على مبايعتهم من الجهة الواحدة ، وتوطيد أركان الفتح العربي من الجهة الأخرى . ولقد كان العصر الأموي دور انتقال من البداوة إلى الحضارة ، بل كان عصر تكيف بالمحيط البيزنطي .

هذا وقد نحت الدولة الأموية نحو غيرها من الدول سواء كانت شرقية أو غربية، وذلك من حيث الاهتمام بالمشاكل السياسية والإدارية أولا . ولما دانت لهم الأمور عنوا بالأشياء المعنوية مثل التربية والتعليم. على أن العصر الأموي مع انهماك رجاله بالشئون الحربية والإدارية لم تعدم فيه المدارس. فمن المعروف أن الحجاج وأباه كانا معلمين بالطائف حوالي منتصف القرن الأول للهجرة ، وإن الكميت كان يعلم الصبيان في مسجد الكوفة ولم يكن بينه وبين الحجاج إلا عشرون سنة. ويذكر الجاحظ أن الوليد بن عبدالملك مر بمعلم صبيان ويروى أن عبدالحميد الكتاب كان أيضا معلم صبية، وذلك في العصر الأموي. هذا شئ يمكننا من استنتاج أنه كان المعلمون والتعليم والكتاتيب في أيام بني أمية .

ومما هو جدير بالذكر اعتناء بني أمية في أمر تربية أبنائهم واختيار المؤدبين لهم . أما الأدلة على هذا فكثيرة منها : اتخاذ عبدالملك بن مروان مؤدبا لابنه الصغير واتخاذ هشام بن عبدالملك سليمان الكلبي

على ما يقال مؤدبا لولده ويذكر الراغب الاصبهاني في محاضرات الأدباء أن المنصور بعث إلى من في الحبس من بني أمية من يقول لهم :

" ما أشد ما مر بكم في هذا الحبس ؟ "

فقالوا :

" ما فقدنا من تأديب أولادنا "

ومما رواه السيوطي بهذا الخصوص شئ عن روح بن زنباع إذ قال: "دخلت يوما على عبدالملك وهو مهموم فقال فكرت فيمن أوليه أمر العرب فلم أجده. فقلت أين أنت عن الوليد؟ قال إنه لا يحسن النحو".

هذا ومن أراد الوقوف التام على ما قام به الأمويون في سبيل تربية أبنائهم ، فعليه بمراجعة كتاب بالإفرنسبة للأب لا منس اليسوعي عن حياة معاوية بن أبي سفيان، وخصوصا الفصل السابع عشر من هذا الكتاب حيث يبحث المؤلف في تأديب الأمراء الأمويين .

التعليم في الدور العباسي

لابد من القول إن الأمويين فتحوا الأقطار الواسعة من بلاد فارس إلى الأندلس ، ورفعوا اسم العرب، وجعلوا لغة قريش لغة الدواوين بدلا عن اليونانية والقبطية والفارسية، وسكوا النقود ، ونظموا أمور المملكة. وصفوة القول إنهم قاموا بالأعمال الأساسية الإدارية اللازمة لنمو الدول، والحق أولى أن يقال إن بني أمية أعدوا البلاد للعباسيين، ولولا جهودهم

في الفتح والتنظيم والإدارة لما تمكن العباسيون من القيام بما قاموا به من تعضيد العلم وترجمة الكتب ونشر الثقافة العربية. فاز العباسيون بالخلافة وبنوا بغداد واحتكوا بالفرس ورفعوا شأن الموالي وخالطوا الأعاجم ولبسوا ألبستهم وأكلوا طعامهم. وهكذا ابتعدوا عن المحيط العربي المحض وأصبحوا مكتفين بمحيط جديد وحياة جديدة كان عليهم أن يختاروا بين أن يسايروها ويكيفوا أنفسهم بها أو أن يتقهقروا ويهلكوا والمعروف أنهم اكتسبوا ثقافة الفرس وجاوروا محيطهم الجديد وفتحوا الأبواب على مصاريعها لنبوغ الأعاجم . فكانت النتيجة من هذا الاقتران البيولوجي والعقلي بين العرب والفرس تلقيح القريحة وولادة العصر الجديد الذي نحن بصدده . هذا هو العصر العباسي الذي طربت فيه بغداد لشعر أبي نواس وأبي العتاهية ، وتجلى فيه نبوغ أهل اللغة مثل سيبويه والخليل بن أحمد والكسائي ، وحق له أن يفخر بأدب الجاحظ وعبدالله بن المقفع . أما في علمي التاريخ والجغرافية فيكفي ذكر الطبري والمسعودي واليعقوبي . فإن كان العصر العباسي هو عصر أبي نواس والجاحظ وسيبويه والطبري وابن المقفع والمسعودي ، فأين تعلم هؤلاء وأين علموا ؟ وللإجابة على هذا السؤال نشرح الحالة المدرسية العلمية كما كانت في القرن التاسع للمسيح . وقبل الخوض في هذا الموضوع لا نرى بدا من لفت الأنظار إلى عامل عظيم كان له اليد الطولى في نشر العلم ونهضة العباسيين الأدبية ، ألا وهو ظهور الورق في أواسط آسيا والصين واستيراده منهما . وربما كان تأثير استعمال الورق في النهضة العربية مثل تأثير فن الطباعة في النهضة الأوروبية في أواخر

العصور الوسطى، فلابد من القول إذا إن الورق في عصر العباسيين ساعد العلم والتعليم كما ساعدت الطباعة "الرنسانس" والإصلاح وبالتالي المدارس العامة والمكاتب والصحافة .

نعم في هذا الدور العباسي، في أوائل القرن التاسع للمسيح، لما كان شارلمان وهو إمبراطور الغرب يتعلم الحروف مع الأولاد في مدرسة قصره، كان خلفاء العباسيين يداعبون العلماء والأدباء ، ولما كانت المدارس مفقودة في أوروبا في ذلك العصر كانت منتشرة في البلاد العربية .

أنواع المعاهد العلمية

ظهرت الكتاتيب في عصر بني أمية وانتشر التعليم في العصر العباسي بواسطة عوامل مختلفة فكانت المعاهد الآتي ذكرها :

(أ) المكتب أو الكتاب

(ب) الجامع

(ج) مجلس العلم أو مجلس الأدب

(د) المدرسة أو الكلية

وهنا نشرح بالترتيب حالة المعاهد التعليمية..

الكتاب

كثيرا ما ورد ذكر هذا المعهد في كتاب الأغاني الشهير . فقد أشار إلى مكتب في الكوفة جاء إليه المؤدب لتأديب الأولاد وجاء ذكر مكتب آخر في الكوفة في بني عبس وللكتاب معلمه ذكر في كتاب البيان للجاحظ . وقال ابن رسته أنه في اردستان " كان يختلف معه إلى كتابه ثمانون صبيا . ثم يزيد ابن رسته في أن علقمة بن أبي علقمة " كان له مكتب يعلم في العربية والعروض والنحو ، ومات في خلافة المنصور " ثم إذا تصفحنا كتبا أخرى مثل معجم الأدباء لياقوت ، وجدنا للمكتب الذكر الكثير نكتفي ببعض الشواهد فقط . " كان محمد بن أحمد الوشاء المتوفي سنة ٣٢٥ هجرية نحويا معلما لمكتب العامة ويقول على بن زيد المولود سنة ٤٩٩ هجرية : " أسلمني أبي إلى الكتاب " وعمر بن أحمد بن العديم المولود سنة ٥٨٨ هجرية يخبرنا أنه لما بلغ سبعة أعوام " حصل إلى المكتب فأقعد بين يدي المعلم " .

ومبارك بن سعيد المتوفي سنة ٥٨٠ هجرية " كان يسكن قراح بني رزين من بغداد وله به مكتب يعلم فيه الصبيان . وكان أولاد الأكابر يقصدون مكتبه من جميع بغداد لما شاع خبره وصلاحه . أدركت زمانه ورأيت مكتبه وكان مكتبا حفيلا مزدحما " .

الجامع

من المعلوم أنه إذا بحثنا عن الباعث الأكبر على إنشاء المدارس في الأزمنة السالفة وجدنا أنه كان دينيا ، ولهذا السبب استعمل الناس أماكن العبادة مثل الكنائس والأديار للتدريس وقام رجال الدين بمهمة تعليم الأولاد . ذلك ما فعله النصارى ، وهو ما فعله المسلمون ، إذ جعلوا الجامع مكانا للتعليم واستخدموا رجال دينهم في مصلحة تأديب الصبيان ونشر العلم على أنواعه . هذا ولا حاجة إلى الإسهاب في هذا الموضوع ، والكل يعلم علم اليقين ما قامت به الجوامع من الخدمات الجليلة في سبيل التربية والتعليم ، فقد ألقيت الدروس في الجوامع وهناك تحلق الفقهاء حول أساتذتهم ، وفي الأروقة أقيمت المناظرات والمجادلات العلمية . ولم تقم الجوامع بهذه الخدمة التعليمية في العصور الغابرة فقط ، بل هي قائمة اليوم بخدمة التعليم كما يظهر من الألوف التي لا تزال تتدفق إلى أروقة وصحون الجامع الأزهر والجامع الأموي والمسجد الأقصى وجامع الجزار في عكا كما تدافعت إلى جوامع بغداد وقرطبة والقيروان وفاس وغيرها من أمهات المدن العربية . أما اليوم .. وقد طلق العلم الدين ، وأصبحت المدارس والجامعات معاهد غير دينية ، فقد استقلت في أبنيتها ورجالها ، غير أنه يستقبح من المدارس الحديثة والجامعات العصرية والمختبرات التي من الطراز الأخير ومن أساتذة اليوم أن تنكر الجيل وتنسى ما للجامع وما للكنيسة وما للصومعة وللشيخ وللراهب وللكاهن من الفضل على المؤسسات اليوم . فلولا الجامع والكنيسة لما ظهرت الجامعة . ولولا التنجيم لما ظهر

الفلك . وأصل الطب خرافات كما إن أصل الكيمياء الشعوذة ومحاولة تحويل المعادن إلى الذهب ، خلاصة القول إن للجامعة فضلا عظيما على العرب وعلى تعليمهم وتربيتهم ، وإنه كان حلقة في سلسلة التطور العلمي .

مجالس العلم ومجالس الأدب

قال مرب أميركي " إنما الكلية قرمية حطب يجلس الأستاذ على إحدى طرفيها والطالب على الطرف الآخر " . وهذا يفيد أن العلم والتعليم هما نتيجة احتكاك المعلم بالتلميذ وأن شخص المعلم لأهم العوامل في التعليم ، فهو أهم من البناء والأثاث والمعدات . فقد علم سقراط في الشوارع وفي الأروقة وفي الأماكن العمومية ، ولو كان سقراط بيننا اليوم لرأيناه يتحدث إلى الناس في المقاهي وفي الأندية وفي المسارح وفي الترام وفي القطار ، وفي المطاعم ، ويغربل لهم الحق من الباطل . وصفوة القول إن التعليم الحقيقي يقوم بلا رسميات أو تكلف أو طرق ميكانيكية ، وما دام متوافر ذانك العاملان اللذان لا غنى عنهما – أي التلميذ والمعلم ومما امتاز به العرب في أول عهدهم بالتعليم عدم الرسميات في طلب العلم فقد وردوه أينما وجد ، جامعا كان مكانه أو مكتبا ، منزلا أو دكانا ، ولإثبات نستشهد بقول كتاب الأغاني " رأيت أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث والمتأدبون فيندهم أشعاره فيأخذون ما كستر من الخزف فيكتبونها فيها " . ويحكى : " إن أبان دهبل كان

يهوى امرأة من قومه يقال لها عمرة وكانت امرأة جزلة يجتمع الرجال عندها لإنشاء الشعر والمحادثة " ويقول :

" دخلت على الأمين حين أجلس مجلس الأدب ، وهو ابن أربع سنين . وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم " وقال القوم : "كما نأتي مجلس العلم " وحكى عن أحمد البيهقي (٤٧٠ هـ) أنه كان " يقصده الناس إلى منزله للتعليم " ، ويروي عن آخر : " جئته يوما في مجلس الأدب والناس عنده وهو يملي " . وأخبر عن اسماعيل بن حسن أنه " تفرد بالتصدر لاقرار العلوم على اختلافها في منزل " فلا شك إذا في أن العرب علموا وتعلموا في العصر العباسي تحت ظروف مختلفة ، رسمية وغير رسمية . فكان منها المكتب والجامع والمنزل ومجلس الأدب ومجلس العلم ومصنع الجرار وهلم جرا . ويقول زيدان : " إن التعليم لم يكن خصا بالمساجد فكثيرا ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات أو الربط أو المنازل أو غيرها " . ومما يظهر تقدير القوم أهل بغداد لمن نبغ من الصبيان ، ويروي صاحب الأغاني " فحذق بعض ما يحذقه الصبيان فحمل على دابة ونشر عليه اللوز فوقعت على عينه الصحيحة لوزة فذهبت " .

تلك إذا كنت حالة التعليم في الدور العباسي ، إذ تمكن الأولاد من التعليم في المكاتب والمساجد ، وإذ تعلم الكبار والصغار في أماكن مختلفة. وخلاصة القول إن محيط العباسيين كان محيط علم وأدب

ومباحثة ومجادلة، فمن كان له كفاية أو ميل إلى العلم تعلم ونبغ ، لأن الوسائط كانت موفورة.

بيت الحكمة

توافرت الوسائط في عهد العباسيين لتعليم الأولاد ، غير أنه لم تقتصر على تعليم الصغار بل وجدت الوسائل لتعليم الكبار أيضا .

ولم يكن المكتب والجامع سوى درجة في السلم ارتقى الطالب منها إلى درجة أرقى . وبتعبير آخر نقول إنه بعد التعليم الابتدائي ، وجد تعليم ثانوي أو أعلى . فكل من أنهى الدروس البسيطة وجد الوسائط اللازمة لمتابعة الدراسية على أساتذة وشيوخ ، إما بصورة خصوية أو في جوامع . هذا وقد أنشأ بنو العباس معهدا راقيا تلقى فيه الطلبة العلوم العالية مثل الرياضيات والفلك والحكمة وغيرها . وكان ذلك المعهد "بيت الحكمة".

ومن المؤسف أننا لم نقف على تاريخ لهذا المعهد الجدير بالاهتمام . غير أنه يمكننا جمع شتات بعض الأخبار عنه واستنتاج أشياء كثيرة منها . يزعم البعض أن مؤسس بيت الحكمة كان المأمون ، غير أن ياقوت يصرح بأن بيت الحكمة كان في حيز الوجود في أيام الرشيد ، إذ يقول عن علان الوراق أنه : " كان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد ، والمأمون والبرامكة " ويمكننا استنتاج مستوى بين الحكمة الأعلى من مقدرة أساتذته ومديره ، أما ما هو معلوم عن رئيس بيت الحكمة فهو

قول ابن النديم إذ يذكر أن المأمون أوفد " سلم صاحب بيت الحكمة إلى بلاد الروم للترجمة " . وروى ابن النديم أيضا أنه لما لم يتقن أحد المجسطي " ندب المأمون لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فاتقناه " .

وفي الكلام عن الخوارزمي قال صاحب كتاب الفهرست أنه " كان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون وهو من أصحاب علوم الهيئة " . إذا كان سلم والخوارزمي ممن برعوا في ترجمة العلوم اليونانية وتعليم العلوم الرياضية مثل المجسطي وعلوم الهيئة . فمن ذلك نستنتج مقام هذين الأستاذين العلمي ومنه نحكم على مستوى بيت الحكمة . فمإذا نظرنا إلى منهج التدريس في بيت الحكمة وجدناه راقيا . وإليك ما يقوله ابن القفطي عن بني موسي بن شاكر الذين طلبوا العلم في هذا المعهد : " وخلف هؤلاء الأولاد الثلاثة صغارا فوصى بهم المأمون اسحق بن إبراهيم المصعبي وأثبتهم مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة .. فخرج بنو موسى بن شاكر نهاية في علومهم وكان أكبرهم وأجلهم أبو جعفر محمد وكان وافر الحظ من الهندسة والنجوم عالما باقليدس والجسطي وجمع كتب النجوم والهندسة والعدد والمنطق " . فإن كان خريج بيت الحكمة قد أنهى هذه العلوم فلا ريب في أن ذلك المعهد كان يساوي الكلية في يومنا الحاضر .

تأسس بيت الحكمة في أيام الرشيد وعظم شأنه في عصر المأمون غير أنه لم يرد له ذكر بعد ذلك . ومن المحتمل أنه لما زال نفوذ

المأمون وخمدت نهضته الفكرية وبدعته في الدين وفي الفلسفة ، واستولى الرجعيون على زمام الأمور ، أقفل ذلك المعهد الجليل ، أو عدلت خطته الأولى وقلب برنامجه ، ظنا من القوم أن الحكمة والفلسفة والعلوم الطبيعية إنما هي منافية للدين .

وربما كانت " دار العلم " ببغداد التي يذكرها ياقوت هي " بيت الحكمة " نفسه بشكل جديد ، إذ يقول عن أبي القاسم بن ناقيا أنه دخل دار العلوم على ابن فضال المجاشعي المغربي المتوفي سنة ٤٧٩ هجرية وهو يدرس النحو فيها . ثم نجد ذكرا لدار العلم في وفيات الأعيان لابن خلكان إذ يروي : " قال أبو العلاء المعري حدثني عبدالسلام البصري خازن دار العلم ببغداد " . فإن كان الأمر كذلك فقد طالت حياة بيت الحكمة من زمن الرشيد إلى زمن أبي العلاء ، وذلك من أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن الحادي عشر المسيحي . وقد لا نكون من المبالغين إذا قلنا إن بيت الحكمة كان من أقدم الكليات والجامعات التي أسست في التاريخ ، وإذا استثنينا المعاهد العلمية في الاسكندرية في زمن البطالسة فلا بأس من إعطاء بيت الحكمة الأسبقية على سائر كليات العالم وجامعاته . يقال إن الأزهر كان أول جامعة ، لأنه أسس قبل جامعة بولوينا في إيطاليا وقبل جامعات باريس واكسفرد وبراغ وكامبردج . فإذا صحت تسمية بيت الحكمة بكلية أو جامعة كان له السبق على الأزهر أيضا .

نرى إذا أن النهضة العلمية الأوروبية التي نسفت عقلية العصور الوسطى بدأت في بغداد ، وأن أسس الجامعات وضعت على ضفاف دجلة ثم امتدت إلى ضفاف السين . وسبق المأمون واسحق بن حنين وسلم والخوارزمي رواد الرنسانس أمثال دانتي وبترارك وأرازمس .

المدرسة

يقول زيدان في بحثه عن المدارس في الإسلام ما يأتي : " وقد أجمع المؤرخون المسلمون تقريبا على أن أول من بنى المدارس في الإسلام نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي في أواسط القرن الخامس للهجرة ومن الغريب أن ينقضي العصر العباسي ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف مواضيعه ولم ينشئ المسلمون مدرسة أو أن ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم " ومع هذا فقد ذكر زيدان أنه كان للمسلمين عدة مدارس قبل عهد نظام الملك ، ولعل السبب في اشتهار سبق نظم الملك في إنشاء المدارس الإسلامية أنه أول من بنى مدرسة كبرى في بغداد وجعل التعليم فيها مجانا وفرض لتلاميذتها الأرزاق والمعاليم .

أما الآن فلا بأس من تمحيص هذه الآراء والوقوف على الحقيقة . ولذا نسأل أولا : أصحيح أن نظام الملك كان أول من بنى المدارس في الأسلا ؟ ثانيا : هل انقضى العصر العباسي ولم ينشئ المسلمون مدرسة؟

والجواب على هذين السؤالين يتوقف على ما نفهمه بكلمة "مدرسة" فإن عنينا بالمدرسة المعهد العلمي المعروف الآن عند العامة مثل المدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية الخ ، كان زيدان ومن قال قوله مخطئين ، لأنه وجدت معاهد علمية ومدارس قبل نظام الملك . وقد أنشئت المدارس قبل انقضاء العصر العباسي وإليك الأدلة :

(أ) إن العباسيين أسسوا بيت الحكمة في عهد الرشيد والمأمون ١٧٠ – ٢١٨ هـ

(ب) أنشأ الفاطميون الأزهر سنة ٣٥٩ وأكملوا بناءه سنة ٣٦١ .

(ج) كان للفاطميين معهد علمي آخر يسمى " دار العلم " أنشئ سنة ٣٩٥

(د) ذكر ياقوت أنه كان معهد يسمى خزانة الحكمة يقصده الناس من كل بلد فيقيمون فيه ويتعلمون منه صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم . وكان ذلك على قول ياقوت في أيام المعتمد أي في القرن الثالث (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ) وقد روى ياقوي أيضا على كلامه عن جعفر الموصلي المتوفي سنة ٣٢٣ هـ ما يأتي : " وكانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم لا يمنع أحدا من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب وإن كان معسرا أعطاه ورقا وورقا تفتح في كل يوم . ويجلس فيها إذا كان معسرا أعطاه ورقا وورقا فتح في كل يوم .

ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ويجتمع إليه الناس . وأملى عليهم من شعره ومن شعر غيره ومصنفاته ثم يملي ما حفظه من الحكايات المستطابة وشيئا من النوادر المؤلفة وطرفا من الفقه وما يتعلق به " .

وذكر ياقوت أيضا أن أحمد بن عبدالملك بن أحمد (٣٨٨ – ٤٧٠ هـ) كان يؤذن على منارة المدرسة البهيقية . والخلاصة إن العباسين سبقوا نظام الملك في إنشاء المعاهد العلمية ، إذ توفى هذا الوزير سنة ٢٨٦ هجرية ، مع أن بيت الحكمة أسس في أواخر القرن الثاني وأنشئت " خزانة الحكمة " في القرن الثالث وبنى الأزهر ودار العلم في القرن الرابع للهجرة . ولإتمام الفائدة نستشهد بأول السبكي عن نظام الملك . قال " وشيخنا الذهبي زعم أنه أول من بنى المدارس . وليس الأمر كذلك فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك . والمدرسة السعدية بنيسابور أيضا بناها الأمير نصر بن سبكتكين ومدرسة ثالثة بنيسابور .. ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت لأبي أسحق الاسفراييني . وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة فإنه لم يتضح لي هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أولا وإلا ظهر أنه لم يكن لهم معلوم " .

مدارس نظام الملك

يتبين مما مر أن نظام الملك الطوسي لم يكن أول من أنشأ المدارس في الإسلام ، هذا إذا فسرنا المدرسة بمعناها المعروف اليوم .

أما إذا عرفنا " المدرسة " بتعريفيها الفني العربي فلا شك أن نظام الملك كان من أول من فتح " المدارس " في الإسلام إن لم يكن الأول. وربما كان التشويش الذي وقع فيه بعضهم ولم يخل منه ذهن زيدان نتيجة عدم التمييز بين معنيي المدرسة . وإذا كان الأمر كما ذكر وجب علينا أن ننظر إلى " المدرسة " غير نظرتنا المعتادة . فمدرسة نظام الملك كانت معهدا جديدا في الإسلام ، وإليك تحليل هذا المعهد الجديد :

الصبغة السياسية " للمدرسة "

من المعلوم أن سلطة الخلفاء تضعضعت حينما دخل الموالي من أتراك وفرس وأكراد في خدمة العباسيين . ولما قبض هؤلاء على زمام الأمور السياسية بقوا في حاجة ماسة إلى اكتساب ثقة العامة ، ولهذا السبب تفانى أمراء الترك والأكراد وغيرهم في خدمة الدين الحنيف ، وبذلوا قصارى جهدهم في مكافحة مذهب الشيعة وتأييد المذهب السني – مذهب الدولة العباسية الرسمي . فكانت خطتهم إرضاء العامة وتخدير الدولة العباسية الرسمي . فكانت خطتهم إرضاء العامة وتخدير أعصاب رجال الدين . ولتنفيذ هذه الخطة انفقوا الأموال الطائلة على أهل الدين وأكثيروا من فتح المدارس وكان نظام الملك رجلا ذكيا عاقلا ولم يغرب عن باله أن كونه في خدمة دولة سلجوقية ربما حال بينه وبين تنفيذ خطته وخطة أسياده بني سلجوق .

فللمحافظة على مركزه وعلى رؤسائه فتح المدارس والربط والزوايا ، لأنه في فتحها استخدم عددا وافرا من العلماء والفقهاء وطلاب الوظائف . وجدير بالذكر أن هذا الوزير جاء بشئ جديد في الإسلام وهو صرف المعاليم على الطلبة والشيوخ . وغير خاف أن الدنيا لا تخلو ممن يضحون بكل مبدأ في سبيل التوظف وقبض العمالة .

ولم تخل البلاد العربية من هؤلاء في عهد نظام الملك ، إذ امتلأت المدارس والربط والزوايا والمارستانات بالذين قبضوا معاش نظام الملك وضربوا بسيفه . وهذا يرينا أن " المدرسة كانت آلة لنشر الدعاية السياسية . هذا وكما استخدم معاوية الشعراء والأدباء لتنفيذ خطته ، وكما يستخدم بعضهم اليوم الجرائد لبث دعوتهم ولإستمالة الرأي العام ، هذا استخدم نظام الملك " المدرسة " لمآربه السياسية . ولا بأس من القول أن نظام الملك كان أدهى من غيره في اختياره المدرسة آلة لترويج سياسته فلا شك أن المدارس وعقول الشبيبة لأساس أمتن للدعاية من الشعراء والأدباء والجرائد . ومن البديهي أن المال كان من اكبر العوامل التي أنجحت مشروع هذا الوزير . ولقد تستحسن بعض الحومات في يومنا الحاضر أسلوب نظام الملك ، فتتخذ المدارس والبرامج وكتب التدريس ودور المعلمين آلات لغرس مبادئها السياسية فها (هم) الفرنسيون يتبعون هذه الخطة في بلادهم وفي مستعمراتهم . وها هم البلاشفة يرغبون في تأييد المذهب الشيوعي بواسطة المدارس . وهناك حكومات أخرى تأتي العمل عينه لا حاجة بنا إلى ذكرها .

لا ريب في أن " مدارس " نظام الملك كانت معاهد خلقت لتأييد المذهب السني ولمكافحة الشيعة على أنواعها . ولم ينفرد نظام الملك بفتح المدارس لهذا الغرض ، بل حذا حذوه صلاح الدين وغيره من السلاطين والأمراء . والمدرسة الصلاحية في القدس أكبر شاهد على هذا ، ومما يثبت الحموي . قال " علي بن محمد النصيحي درس النحو بالنظامية بعد الشيخ أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي ، ثم اتهم التشيع فقيل له في ذلك ، فقال " لا أجحد أنا متشيع من الفرق إلى القدم " فأخرج من النظامية ورتب مكانه الشيخ أبو منصور موهوب . فكان المتعلمون يقصدون داره التي انتقل إليها للقراءة عليه " . ومن يقرأ هذه الحادثة يظن نفسه قرائا صحف اليوم في الشرق والغرب . ولا فرق بين أستاذ النظامية علي بن محمد وبعض أساتذه اليوم الذين يرغب إليهم أن يستقيلوا من مدارسهم لعقيدة اعتقدوها ، أو مذهب ناصروه يخالف مذهب المدرسة الرسمي . وعلى هذا الأمر يتفق المسلمون مع النصارى ويجاري الشرق والغرب ، لقد أخرج الأستاذ اليوم لأنهم يتهمون بالاشتراكية أو بالكفر أو بمناصرة مذهب النشوء أو بالانتصار لمعاوية ضد علي وهلم جرا . ولا يسعنا إلا الإعجاب بالأستاذ علي بن محمد لرجولته واستقلاله الفكري ، غير أن النظامية لم يمكنها إبقاؤه فيها إذ لم يكن غرضها تثقيف العقول وتربية الرجال على تحكيم عقولهم ، بل إشرابهم حب المذهب السني والهتاف بنظام الملك .

الصبغة الأميرية

سبق أن قلنا إن الأمويين والعباسيين شجعوا العلم وفتحوا بعض المدارس غير أن مدارسهم لم يكمن معاهد أميرية منظمة ، ينفق عليها من بيت المال ، ويعين مدرسوها من قبل الحكومة ، ويقرر برنامجها في الدوائر الرسمية . نعم إن المأمون حاول ضبط منهج التدريس بامتحانه المعلمين وإكراهه إياهم على تعليم الطلبة خلق القرآن ، غير أن هذا لا يجيز لنا القول بأن المدارس في أيام المأمون كانت مدارس أميرية ، أما مدارس نظام الملك فكانت أميرية إذ كان لها أوقاف وميزانية ، وأنفق عليه من بيت المال، وعين مدرسوها من قبل الحكومة . وأمر المعاليم كان أمرا جديدا في شئون التعليم، إذ كان يعيش المعلم سابقا على ما يأخذ من الطلبة من الأجرة بصورة خصوصية . وأما نظام الملك فألغى ذلك وقدر المعاليم للأساتذة والطلبة . وصفوة القول إن نظام الملك قلب المدارس من حالتها الخصوصية إلى حالة أميرية . ومما يؤيد هذا الزعم كلام السبكي المتقدم وهو ما يأتي :

"وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة فإنه لم يتضح لي هل كانت المدارس قبلة بمعاليم أولا، والأظفر أنه لم يكن لهم معلوم.

وفتح نظام الملك نظامياته في مدن عديدة ، منها بغداد والبصرة والموصل وأصبهان ونيسابور وبلخ وهراة . ولا مراء في أن هذه المدارس

امدت الدولة بالقضاء والمدرسين والكتبة والموظفين الإداريين الذي لا يستغني عنهم في دولة واسعة . ويؤخذ مما سبق أن " المدرسة " ظهرت في الإسلام بعدما انحلت قوى العرب ، وصارت مقاليد أمور الخلافة بين الموالي . وإن " المدرسة " كانت معهدا سياسيا مذهبيا أميريا ، وأما مستوى المدارس العلمية فكان يقرب من مستوى المدارس الثانوية اليوم ، مثل الليسيه في فرنسا والجمناز في ألمانيا . ويقول الأب أنستاس الكرملي في هذا الصدد : " إن المراد بالمدرسة ما كان يريد به أهل بغداد في سابق الزمان ، أي ما يقابله اليوم بالمكتب الثانوي والمكتب العالي ، وليس المراد به أبدا الكتاب ". وفي الختام نستشهد برأي المستشرق فان برشم في أمر المدارس إذ قال :

La madrassa et iecoie de tradition qui remplacent alors les vielles Ecoles do science (dar al-ilm) dacademies qui florissaient sous les Abbasides et les fatimides et ou lon ensegnait acote du droit et des sciences relogieuse l'astronomie, les mathematiques, la medicine, la philosophie, bref toutes les sciences"

وخلاصة هذا الرأي أن "المدرسة" ودار الحديث قامتا مقام المعاهد العلمية القديمة التي كانت تسمى بدور العلم . وكانت هذه المعاهد التي عظمت في عهد العباسيين والفاطميين تشبه الأكاديميات ذلك المعهد الذي درست فيه الدروس العلمية مثل الفلك والرياضيات والطب والفلسفة ، كما درست الدروس الشرعية .

إذا اعتاض الأعاجم بالمدارس ودور الحديث عن بيوت الحكمة ودور العلم التي أنشأها العرب . أي أنهم اتخذوا خطة رجعية في إهمالهم المعاهد التي علمت العلوم الطبيعية مثل الطب والفلك والفلسفة ، وفتحهم المدارس لتعليم العلوم الشرعية واللغوية ، فضلا عن بث الدعوة السياسية المذهبية .

النظامية

لقد نظرنا في أمر هذه المدارس نظرة إجمالية ، أما الآن فلا بأس من البحث في شأن مدرسة واحدة لكي نقف على أحوالها بقدر ما تساعدنا المراجع التي بين أيدينا . ولا جدال في أن أهم المدارس آنئد النظامية في بغداد وأنه – وإن لم يكن لها تاريخ خاص بها – يمكننا جمع شئ من أخبارها من مصادر مختلفة .

قال ابن خلكان " وذكر أبو الحسن محمد بن هلال بن الصافي في تاريخه أن المدرسة النظامية بدئ بعمارتها في ذي الحجة من سنة سبع وخمسين وأربعمائة . (١٠٦٤ م) . وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من سنة تسع وخمسين . وكان نظام الملك أمر أن يكون المدرس بها أبا اسحق الشيرازي وقرروا معه الحضور في هذا اليوم للتدريس ، فاجتمع الناس ولم يحضر ، وطلب ولم يوجد ، فنفذ إلى أبي نصر بن الصباغ فأحضر ورتب بها مدرسا . وظهر الشيخ أبو اسحق في

مسجده ولحق أصحابه من ذلك ما بان عليهم وفتروا عن حضور درسه ، وراسلوه إن لم يدرس به مضوا إلى ابن الصباغ وتركوه .

فأجاب إلى ذلك وعزل ابن الصباغ . وجلس أبو اسحق يوم السبت مستهل ذي الحجة فكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوما " .

وفي الكلام عن أبي إسحق الشيرازي يذكر ابن خلكان أنه " لما بنى نظام الملك مدرسته ببغداد سأله أن يتولاها فلم يفعل " .

هذان شاهدان على أن عالما مثل أبي إسحق الشيرازي لم يستحسن فكرة إنشاء النظامية وأبى أن يدرس فيها . وهذا حسنة تذكر للشيخ أبي اسحق تظهر أنه كان أستاذا ذا مبدأ لم يغره التقرب إلى الوزير ، ولم يعم المال بصره ، ولم يكترث للنفوذ الاجتماعي الذي ربما حصل عليه من التدريس في مدرسة الوزير نظام الملك . غير أنه لا يسعنا إلا أن نتساءل عن الأسباب التي دفعت بالشيخ أبي إسحق إلى رفض التدريس في النظامية . فماذا رفض الأستاذ أن يدرس ؟ ولماذا فضل التدريس في مسجد ؟ ولم اضطره تلاميذه أخيرا إلى الرجوع إلى النظامية ؟ . أما رفض أبي إسحق التدريس في النظامية فربما كان سببه ما ذكره ابن خلكان في ترجمة حياة نظام الملك حيث قال : " وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وفي سنة تسع وخمسين جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ أبو إسحق الشيرازي رحمه الله تعالى فلم يحضر . فذكر الدرس أبو نصر بن الصباغ .. وكان الشيخ أبو إسحق إذا

حضر وقت الصلاة خرج منها وصلى في بعض المساجد وكان يقول بلغني أن آلاتها غصب " إذا لم يوافق أبو إسحق على مبدأ النظامية لأنه بلغه أن أكثر آلاتها غصب .

وزد على ذلك أن أبا إسحق ربما كان على شئ من المحافظة على القديم والارتياب من المعاهد الجديدة ، أي إنه كان من العلماء الذين ارتابوا في أمر النظاميات، وخافوا على العلم الحقيقي ، عندما بدأت الدولة في إعطاء المعاليم ، وإنفاق الأموال على الفقهاء ، وكثرة الجراية ، ولعل بعض العلماء كانوا أشرف من أن يبيعوا علمهم ووجدانهم واستقلالهم الفكري بالمعاليم والجرايات والوظائف . ومما ينص عليه الحاج خليفة صاحب كشف الظنون من هذا القبيل ما يأتي :

" ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به ، ولما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية ، والأنفس الذكية ، الذين يقصدون العلم لشرفه ، والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم . وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الاخساء وأرباب الكسل " .

تلك هي أسباب امتناع الشيرازي عن التدريس في النظامية أما الطلبة فلم اكرهوه على الرجوع ؟ وللإجابة نقول إنه ربما كان الدافع الأكبر لعمل الطلبة مسألة المعاليم ، ووفرة الجرايات والرواتب في النشامية ، وعدمها عند الشيرازي . ومن المعلوم أن كثيرا من الطلبة في

يومنا الحاضر إنما يؤتمرن المدارس والجوامع للتعيش وأخذ الجراية ، لا لطلب العلم أو التلذذ بالأعمال العقلية . وندعم رأينا هذا بقول المقريزي عن إحدى مدارس القاهرة – المدرسة الناصرية – : إنها " لولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت " .

فتحت النظامية أبوابها ٤٥٩ هجرية (١٠٦٦ م) وبقيت مفتوحة نحو ثلاثة قرون ، إذ زارها ابن بطوطة المتوفي سنة ١٣٧٨ م . وهاك ما قاله هذا الرحالة عنها : " وفي سوق الثلاثاء المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها " .

وكان مما درس بالنظامية عدا أبي إسحق الشيرازي ، الإمام الغزالي، وبهاء الدين بن شداد المترجم لصلاح الدين، والمبارك ابن المبارك، وعلي بن محمد، والشيخ زكريا يحيى بن علي الخطيب. ويذكر ياقوت أن الأبيوردي كان ولي خزانة الكتب في النظامية. وكان علي بن منصور كاتبا مقيما فيها. ولا بأس في هذه المناسبة من المقابلة بين علي بن محمد الذي درس النحو بالنظامية . وأقيل منها لأنه كان متشيعا . والوجيه الذي " كان حنبليا ثم صار حنفيا . فلما درس النحو بالنظامية صار شافعيا". فيظهر من هذه الحوادث الثلاث – حادثة الشيرازي وامتناعه عن التعليم في المدرسة النظامية لأن بعض آلاتها كانت مغتصبة ، وأمر الأستاذ علي بن محمد الذي طرد منها كان متشيعا ولم يرد أن يغير مبدأه ، وإبقاء الوجيه الذي إنما صار شافعيا للحصول على وظيفة مدرس النحو – أن

محيط النظامية وخطتها لم يكونا على حسب ما يتطلبه مبدأ مدرسة راقية. فإننا نشتم من هذا الأحوال رائحة السياسة والتذبذب .

هذا من جهة أساتذتها ، أما برنامجها فلا ريب في أنه اختلف كل الاختلاف عن برنامج الدروس في بيت الحكمة وفي دار العلم .

أم الدليل على اختلاف البرنامج في النظامية عما كان عليه في بيت الحكمة وفي دار العلم فهو أولا سلبي، إذ لم نعثر على ذكر للعلوم الطبيعية في النظاميات، بينما وقفنا على أخبار عديدة تدل على تدريس الفقه والعلوم الشرعية فيها. وثانيا ، نستنتج شيئا عن المنهج من الأساتذة الذين درسوا في النظامية، إذ كانوا رجال شرع ولغة وجدل ومنطق، لا مدرسي فلسفة وحكمة وفلك وطب ورياضيات .

ونستشهد في الختام يقول الرحالة الأندلسي ابن جبير في النظامية . إذ زارها في أثناء الحروب الصليبية وفي عهد صلاح الدين .

فقال عن بغداد : " والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية ، وما منها مدرسة وهي يقصر القصر البديع عنها . وأعظمها وأشهرها النظامية .. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبس تتصير إلى الفقهاء والمدرسين بها . ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد .. فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعته من واعظ يتكلم فيه .. فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الأمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية ،

وفقيه المدرسة النظامية، والمشار إليه بالتقدم في العلوم الأصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونفحات محرجة مطربة. ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار، وترصف في أفانين من العلوم في تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والتكلم على معانيه .

ثم رشقته شآبيب لمسائل من كل جانب فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر. ودفعت إليه عدة رقاع فيها، فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ المساء فنزل وافترق الجميع".

دار العلم أو دار الحكمة

لقد جئنا بشئ من تاريخ بيت الحكمة الذي أنشأه العباسيون وبشئ من أخبار النظامية مدرسة الوزير نظام الملك . أما الآن فترى من المناسب أن نأتي بما وقفنا عليه من أخبار دار العلم لإكمال هذا المثلث العلمي .

زاحم الفاطميون أولاد عمهم العباسيين على الخلافة ، ولم يكتفوا بالمزاحمة السياسية بل تعدوها إلى المنافسة الاجتماعية والمبادرة العلمية. وربما كان تأسيس دار العلم في القاهرة ضربا من المنافسة أو

المحاكاة لبيت الحكمة في بغداد . وعلى كل حال فقد كانت دار العلم تشبه بيت الحكمة في منهجها ، إذ درس فيها الطب الرياضيات والمنطق وغيرها من المواضيع . أما المعلومات عن دار العمل فهي أوفر لدينا منها عن بين الحكمة . وهذا فضل يذكر للمقريزي . وخلاصة أخبار المقريزي عن هذا المعهد هي:-

١- إن الحاكم بأمر الله أمر ببناء دار العلم في باب التباين بالقاهرة سنة ٣٩٥ هـ

٢- بقيت دار العلم مفتوحة إلى عهد الأفضل بن أمير الجيوش ، فعلى هذا تكون قد عاشت من عهد الحاكم بأمر الله إلى وقت انقراض الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين سنة ٥٦٧ هجرية . وكانت تلك المدة نحو قرن وثلاثة أرباع القرن .

٣- جلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء .

٤- كان فيها خزنة كتب نفيسة " وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك " .

٥- كانت دار العلم ديمقراطية تفتح أبوابها لجميع الطبقات " وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم " .

٦- كانت دار العلم مجهزة باللوازم التامة " فرشت هذه الدار وخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم قوام وخدام وفراشون وسموا بخدمتها .

٧- كان لدار العلم أوقاف في فسطاط مصر " وقد ذكر دار العلم ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه في كل سنة العين المغربي مائتان وسبعة وخمسون دينارا " . وأما تفصيل ميزانية دار العلم أو دار الحكمة فكان على المنوال الآتي ذكره :-

١٠ دنانير ثمن الحصر العبداني

٩٠ دينارا لورق الكاتب (يعني الناسخ)

٤٨ دينارا للخازن

١٢ دينارا ثمن الماء

١٥ دينارا للفراش

١٢ دينار للورق والحبر والأقلام ولمن ينظر فيها من الفقهاء

١ دينار لمرمة الستارة

١٢ دينارا لمرمة ما عسى أن ينقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها .

٥ دنانير ثمن لبود الفراش في الشتاء

٤ دنانير ثمن طنافس للشتاء

أضف إلى هذا المدد المالي أن الحاكم بأمر الله كان يناصر دار العلم بنفوذه الأدبي . قال : " وفي سنة ثلاث وأربعمائة أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء ، منهم عبدالغني بن سعيد ، وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله . وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ، ثم خلع على الجميع ووصلهم " . وهذه بعض الحسنات للحاكم بأمر الله التي قلما يذكرها المؤرخون ، ولعلها تكفر عن بعض ذنوبه وأعماله الغريبة .

تلك بعض أخبار هذا المعهد الذي لا شك في أنه خدم زمانه مدة طويلة إلى أن جاء الأفضل وخاف على عقول الناس من الفساد فأغلقه . " فاعتمد بركات من جملته أن استفسد عقول جماعة وأخرجهم عن الصواب ، وكان ذلك في أيام الأفضل ، فأمر للوقت بغلق دار العلم والقبض على المذكور فهرب " .

أما السبب الحقيقي في إغلاق دار العلم نهائيا فربما كان راجعا إلى خطة صلاح الدين في مكافحته مذهب الشيعة وإغلاق كل مدارسهم . وفتحه مدارس تؤيد مذهب السنة . ذهبت دار العلم كما ذهبت أختها بيت الحكمة ، وقام مقامها مدارس درست العلوم النقلية واللسانية والدينية والشرعية ، وقضت على الحكمة والفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية على وجه الإجمال . وبذهاب بيت الحكمة ودار العلم ذهبت الكليتان الحقيقيتان من البلاد العربية ، ولم يقم من ذلك الوقت إلى الآن معاهد عربية تقوم مقامها . على أن هنالك أدلة تشير إلى قرب تأسيس معهد علمي عربي حديث إما على ضفاف النيل ، أو على ضفتي دجلة وهذا – يعيد دون ريب – مجد دار العلم وبيت الحكمة .

عدد المدارس

يستحيل علينا بالطبع الوقوف على العدد التام لكل المدارس العربية ونريد هذا المدارس معناها الفني ، أي المعاهد الثانوية أو الكليات ، غير أننا نبين ما عثرنا عليه من درسنا . ولا مراء في أنه يوجد عدد وافر من المدارس لم يعثر عليه ، وسيكشف الزمان والبحث أمره . ومما يزيد هذه الصعوبة قلة الكتب في هذا الموضوع ، إذا لم نقف إلا على كتب ثلاثة تعد المدارس وهي الخطط المقريزية التي بحثت عن أمور بمدارس القاهرة ، وكتاب في مدارس دمشق لعبد القادر النعيمي اسمه " تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى ما في دمشق من المدارس " ، وتاريخ مجيز الدين المسمى " بالأنس الجليل حيث يعد مدارس القدس الشريف . أما

الأندلس فلم تؤسس فيها المدارس وهذا لا يعني بالطبع أن الحالة العلمية فيه لم تكن راقية ، إنما تلقى أهل الأندلس العلوم العالية في الجوامع والمساجد . قال المقري " ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة " ، وربما كان سبب عدم ظهور " المدرسة " في الأندلس ابتعاد تلك البلاد عن تأثير الموالي والأعاجم ، الذي قاموا بتأسيس " المدارس " لأغراضهم كما مر . أي إن التعليم سار في الأندلس على الطريقة التي كانت متبعة في العراق والشام ومصر قبل ذهاب الأمر من يد العرب .

وأما المدارس التي عثرنا عليها فهي هذه

١٣٣ في دمشق ١٤ في حلب

٨٩ في القاهرة ١٢ في طرابلس الشام

٤٠ في بغداد ٩ في الموصل

٤٤ في القدس

وزيادة على ما مر وقفنا على ذكر للمدارس في المدن الآتية :-

مرو ٣ حمص

الإسكندرية حماة ٣

قرطبة	مكة
نيسابور	٢مكناسة
سمرقند	بلرم
خوارزم	دمياط
هراة	دنيصر
كربلاء	الرها
ماردين	رأس العين
واسط	تونس
نصيبين	٢ تلمسان

فيكون مجموع المدارس التي وجدنا لها ذكرا ٣٦٨

الأوقاف المدرسية

سبق أن قلنا إن من اهتم أولا بمعاهد التعليم هم رجال الدين والعلم بصورة خصوصية ، وإنهم إذا تقاضوا أجرا على التعليم إنما فعلوا ذلك بحسب اتفاق خاص . ومع مساعدة الخلفاء والأمراء والأعيان للعلم والعلماء وأم التعليم ، لم تكن الإعانة منظمة قائمة على خطة أو

أساس حتى زمن نظام الملك الذي وضع أساسا قانونيا لمالية المدارس ، ورتب ميزانيتها . فبعد أن كان المدرس يدرس مجانا أو في مقابل أجر يتقاضاه من التلاميذ ، أصبح يأخذ معلوما أو راتبا في كل شهر . وبعد أن طلبت الناس العلم في الجوامع ، أصبحوا يدرسون في المدارس . ومن حسنات النظام الجديد أن أبواب العلم فتحت للفقراء، إذ عنيت أوقاف المدارس بتدريسهم وأكلهم وشربهم ومنامهم ولبسهم واستحمامهم ومعالجتهم في بعض الأحيان .

ولا شك أن حبس الأوقاف على المدارس خطة قويمة لضمان حياتها.

وغير خاف أن الأمر لا يستتب للمعاهد العلمية ما لم يكن لها ريع منظم مستمر ، إما من أوقاف أو من مالية حكومة . ومن المعروف أنه لو كلف طلبة العلم اليوم دفع كل نفقات تعليمهم ، لما تعلايم إلا الأغنياء منهم . وفي الحق أن هذه مأثرة خلدت ذكر نظام الملك ، إذا كان السابق في مسألة تحويل المدارس ولم ينشئ من جاء بعده من الأمراء مدرسة إلا وحبس عليها الأوقاف الكافية للقيام بنفقاتها . فإذا أخذنا صلاح الدين مثلا ، وجدناه يقف الأراضي الواسعة والحوانيت والأسواق على سد حاجات المدارس . وقد ذكر المقريزي عن المدرسة السيوفية في القاهرة " وقفها صلاح الدين وعين للتدريس فيها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ، ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارا ، وباقي ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده " .

وهذا ما جاء في كتاب الوقف " الحمد لله وبه توفيقي وتاريخ هذا الكتاب تاسع وعشرون شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . ووقف على مستحقيها اثنتين وثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان " . ووقف صلاح الدين أيضا سوق العطارين في القدس على المدرسة الصلاحية . وإذا راجعنا كتب " الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل " ، وجدنا ذكر نحو أربعين مدرسة ، ولكل منها أوقاف خاصة بها . وكثيرا ما يذكر ابن جبير وابن بطوطة ما كان للمدارس التي زارها من الأوقاف . وهاك كلام ابن حبير : " ولهذه المدارس (في بغداد) أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون على الطلبة ما يقوم بأودهم ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم ". وما انطبق على بغداد انطبق أيضا على دمشق ويؤيد هذا المقال مشاهدات ابن بطوطة في الشام إذ قال: "وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش من قيام بمسجد أو قراءة بمدرسة.. ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة". ثم إن حالة الأزهر من حيث كثرة أوقافة وجرايته لخير دليل على جود العرب على العلم وسخائهم على العلماء .

المعدات المدرسية

كان ينقص المدارس العربية ما هو ضروري اليوم للمدارس العصرية من مقاعد ومناضد وألواح خشب وما شاكل ذلك ، وبما أنها عاشت قبل اختراع الطباعة ، فقد كان يعوزها أيضا الكتب المدرسية والخرائط

والمعاجم، ولا ريب في أن عدم توافر الكتب المدرسية أدى إلى إزعاج الطلبة وعاق سير طلب العلم .

جلس الطلبة يومئذ على الحصر حلقات حلقات ، وأخذوا ما أملى عليهم أساتذتهم ، ونسخوا المخطوطات بأنفسهم . إذا كنت الأدوات المدرسية مفقودة من المدارس العربية ، غير أنه كثيرا ما نجد ذكرا لخزائن الكتب ، وهذا خير ما تجهز به المدارس ، ومنها اثنتا عشرة خزانة كتب في مدارس القاهرة مثل الظاهرية والفاضلية والسابقية والطيبرسية وغيرها . وأما الفاضلية فيذكر المقريزي أن خزانتها احتوت على " مائة ألف مجلد وذهبت كلها ، وكان أصل ذهابها أنه لما وقع الغلاء في مصر في سنة أربع وتسعين وستمائة ، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصوري مسهم الضر ، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز ، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب " . وورد أيضا ذكر الخزانات المدرسية لكتب في تواريخ مجير الدين والمقري وياقوت . ومما يروي في معجم البلدان أنه كان لشرف الملك مدرسة في مرو فيها خزانة . وكانت خزانة في كل من مدرسة الحسن بن اسحق ، والمدرسة العميدية والمدرسة الخاتونية . أما النظامية فكان لها خزانة ، وكان قد ولى عليها الأبيوردي .

ونذكر في الختام قول المقريزي في خزانة دار العلم أو دار الحكمة وفتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها ، ونسخ كل

من التمس نسخ شئ مما فيها .. وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ " .

جهزت المدارس بالخزانات لتغذية العقول ، كما جهزت أيضا بوسائل راحة الجسم ، مثل الحمامات والمطابخ والمارستانات .

ونكتفي بكلام ابن جبير عما رآه في مدارس الإسكندرية في عهد صلاح الدين . فقد قال : " واتسع عناء السلطان بهؤلاء الغرباء (الطلبة) الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء " .

الفصل الثاني

المعلمون

قال النبي: "من علم علما فكتمه ألجعمه الله يوم القيامة بلجام من نار".

التعليم في صدر الإسلام

قد لا نخطئ إذا حسبنا أسرى قريش في وقعة بدر الدين استخدمهم النبي لتعليم أولاد المسلمين الكتابة أول المعلمين في الإسلام . ولا شك في أن عمل النبي يدل على تقديره لمعرفة القراءة والكتابة . ويظهر بادئ ذي بدء أن التعليم لم يكن مهنة أو صناعة عند العرب. أي أن المعلمين لم ينتحلوا التعليم حرفة للمعاش بل علموا القرآن لغرض ديني ، وحبا بالعمل لا للأجرة وللانتفاع . ولذا فلابد أن يكون قد قام أولا بأمر التعليم كبار القوم – أولئك الذين كانوا مستقلين استقلالا اقتصاديا . ويؤيد هذه النظرية ما قاله ابن خلدون " وإن التعليم في صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ، ولم يكن العلم بالجملة صناعة ، إنما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ . فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا باللمة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي " .

وإذن فقد كان المعلم من أهل العصبية أو من الهواة ، غير أنه لم يبق على تلك الحالة بل استحال صناعة لابتغاء الرزق ، ولذلك أقبل عليه من كان في حاجة إلى تحصيل معاشه ، وترفع عنه من لم يكن في حاجة إلى المعاش . ومما يذكره ابن خلدون ما يأتي : "وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعليم ، فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم . واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان ، فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعرش ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للعلم ، واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك " . وكان شأن العرب شأن بعض الأمم الأخرى الفاتحة ، إذ اشتغلت بالشئوون العسكرية والإدارية تاركة مهنة التعليم ومهنة الكتابة في الدواوين للموالي من الفرس والروم والأقباط، ويرى الأب لامنس اليسوعي أن احتقار العرب لمعلمي الصبيان في القرن الأول للهجرة كان ناجما عن عدم مقدرة هؤلاء على القيام بعملهم، وإنهم لما لم يقدروا على مماسة هذه المهنة وغيرها ، احتقروها وبخسوها حقها ما استطاعوا .

Le mepris pour cette utile profession peut avoir son origine dans l'incapacit notoire, ou se voyaient les conquerants pour ga remplir . forces de l'abandoner aux tributaries, de se mettre a leurecole, les vainqueurs se sont venges en les deqreciants".

ولتأييد قولنا بكثرة عدد المولى وأهل الذمة الذين اشتغلوا في التعليم، سنشهد بقول ابن رسته إذ يذكر أسماء أربعة وعشرين معلما كان

ثلاثة منهم من الموالي وهم : علقمة بن أبي علقمة مولى عائشة كان يرى عنه مالك بن أنس وكان له مكتب يعلم فيه العربية والعروض والنحو ومات في خلافة المنصور . وأبو معاوية النحوي واسمه شيبان بن عبدالرحمن مولى بني تميم وكان يؤدب ولد داود ابن علي . وحبيب المعلم مولى معقل بن يسار .

فكان ترك العرب التعليم للمستضعفين والموالي يشبه بعض الشئ عادة الإغريق في عصر بركليس من هذا القبيل، ومعنى كلمة بداجوج (Pedagogue) دليل الولد أو مرشده، وكان البداجوج أشبه شئ بالخادم الذي يحمل الكتب للولد ويذهب به إلى المدرسة ويرجعه إلى البيت. وكلمة "بداجوجي" أو علم التربية مشتقة من ذلك الأصل الحقير.

مقام المعلمين الاجتماعي عند العرب

لقد تعددت الفكاهات وكثر الهزل والمزاج على حساب المعلم العربي . ومن ألطف ما يقال عنه ما يدور اليوم على ألسنة العامة استهزاء بالمعلمين واحتقارا لمهنتهم . وقد سمعت في صغري الأبيات الآتية :

أما الرزالة تقسمت على سته "على حايك وخياط واسكاف"

" معلم الأولاد ما أصقع لحيته وبعد الخراز والنداف "

وعلى رأي محيط المحيط :

وصقاعة قد خصتت في ستة في حائك ومنجد واسكاف

ومعلـــم الأولاد ضـــعه بيـــنهم   واتبعـــه بـــالحلاج والنـــداف

ومن خير ما كتب في هذا الموضوع مقال الجاحظ في البيان والتبيين إذ قال : من أمثال العامة " أحمق من معلم كتاب " .

وكيف يرجى العقل والرأي عند من   يروح على أنثى ويغدو على طفل

وفي قوله الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء وقد سمعنا قول بعض همك الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين

ومما جاء عن المعلمين في كتاب " محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء " :

كفـى المـرء نقصـا أن يقـال بأنـه   معلـم صـبيان وإن كـان فاضـلا

وجاء أيضا :

إن المعلـــم حيـــث كـــان معلـــم   ولــو ابتنــى فــوق الســماء ســماء

وجاء فيه أيضا :

يقال كلف اسماعيل بن علي عبدالله بن المقفع أن يجلس مع ابنه في كل أسبوع يوما فقال " أتريد أن أثبت في ديوان النوكي ؟ " والنوكي هم الحمقى فاسدو الرأي .

ثم إذا راجعنا كتاب ألف ليلة وليلة وجدنا " حكاية قلة عقل معلم الصبيان " التي يرد فيها هذا الكلام : " إن هذا شئ عجيب من فقيه يعلم الصبيان ، مع أن العقلاء اتفقوا على نقص عقل معلم الصبيان " .

ومن المشهور أن الحجاج عير بكونه معلم صبية ، كما يظهر من الأبيات الآتية :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر

رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

وأيضا :

فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده ... إذا نحن جاوزنا صغير زياد

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبدا من عبيد إياد

زمان هو العبد المقر بذلة ... يراوح صبيان القرى ويغادي

وصفوة القول إنه حكم على المعلم بصقاعة اللحية وبالحماقة وبقلة العقل. وبهذا الحكم وضع معلمو الصبيان في أحط مقام اجتماعي، إذا ادخلوا في صفوف النوكي ورعاة الغنم وقليلي العقل. أما أسباب ذلك فلابد أن يكون منها استحقاق بعض المعلمين هذه الألقاب. ولعل أقواها احتقار العرب للمهن التي لا تظهر فيها أعمال الرجولية التي تتجلى في الحرب والغزو وركوب الخيل إلى غير ذلك .

وليس بالمستغرب أن ينظر العرب هذه النظرة إلى طائفة صرفت معظم أوقاتها في صحبة الصبية وتحت سقوف البيوت، عوضا عن معاشرة الرجال وصرف الساعات الطوال على صهوات الخيل. ومثلهم في ذلك مثل فرسان العصور الوسطى الذين حسبوا أن أعمال التعليم إنما تليق بالرهبان والقسوس ، فاستغنوا عن القراءة والكتابة بأعمال الفروسية والحرب، وأضف إلى ذلك أنه ربما اضطر الناس إلى احتقار معلمي الأولاد لما أظهره بعضهم من صغر النفس والمسكنة وسخافة العقل والغطرسة على الصغار وضربهم بالعصى وإذاقتهم آلام الفلقة .

ذلك كان الوجه المظلم في مركز المعلم ، أما الوجه المنير فلابد من إظهار حقيقته إنصافا للمعلمين . وغير خاف أنه كما اختلفت المعاهد العلمية وكان منها الكتاب والجامع والمدرسة ، فكذا تباينت درجات المعلمين من معلم أولاد إلى شيخ فمدرس فأستاذ وما أشبه ذلك .. أما ازدراء العامة فلا شك أنه كان منحصرا في معلم الأولاد وهو ذلك الرجل غير المتضلع من العلم والأدب، وهو الذي إنما اتخذ مهنة التعليم لتحصيل قوته. ولا شك في أن السواد الأعظم من أولئك الصعاليك لو تركوا التعليم لما تمكنوا من تحصيل رزقهم من عمل آخر، فقد علم أولئك المعلمون في كتاتيب العرب مدة طويلة ، وهم اليوم لا يزالون يعلمون في كتاتبنا ، غير أن عددهم والحمد لله آخذ في النقصان .

أما الشيوخ الأفاضل والمدرسون والأئمة فإنهم انتموا إلى طبقة اجتماعية غير الطبقة التي انتمى إليها معلمو الأولاد ، فكان لهم كرامة

واحترام عند عامة القوم وخاصتهم ، وكفانا مثلا على ذلك المركز الذي ناله الغزالي والشيرازي وسيبويه والخليل بن أحمد وأبو طاهر السفلي وغيرهم من المدرسين، بل يكفي مثل الأستاذ الكبير إمام الحرمين ، ذلك الإمام الذي يصفه ابن خلكان بقوله: " وكان يذكر دروسا يقع كل واحد منها في عدة أوراق ولا يتلعثم في كلمة منها .. وحضر دروسه الأكابر من الأئمة .. وأغلقت الأسواق يوم موته وكسر منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه وأكثروا فيه المراثي .. وكان عدد تلامذته يومئذ يقرب من الأربعمائة فكسروا محابرهم وأفلامهم وأقاموا على ذلك عاما كاملا " ذلك كان مركز إمام الحرمين ولم ينله وحده بل استحقه آخرون ، ومنهم الإمام مالك ابن أنس، فما يروى عنه أن الخليفة هارون الرشيد طلبه ليأتي إليه فأجاب: "إن العلم يؤتى "فصار الرشيد إلى منزل مالك بن أنس . وقد روى المقري قصة عن الفقيه أبي إبراهيم والحكم ترينا ما كان للمدرسين والعلماء من المقام. قال: "دخل على الفقيه أبي إبراهيم خصى من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله فإن الأمر خرج فيك وها هو قاعد ينظرك وقد أمرت بإعجالك، فقال له سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجلة فارجع إليه وعرفه وفقه الله أنك وجدتني في بيت في بيوت الله تعالى معي طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يقيدونه عني وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضى الله وطاعته " .

هذه بعض الأمثلة التي تبين الفرق بين مقام معلم الكتاب عند الناس ومقام الأساتذه الكبار، ولربما انطبق على المعلمين قول الجرجاني:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

ولتتمة الكلام نأتي برأي الجاحظ، إذ قال: "والمعلمون عندي على ضربين منهم من ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم الملوك أنفسهم والمرشحين للخلافة. فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم .. وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل كميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء بن أبي رباح ومثل عبد الكريم بن أبي أمية وحسين المعلم وأبي سعيد المعلم . ومن المعلمين الضحاك بن مزاحم أبو معبد الجهني وعامر الشعبي فقد كانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان " .

وإذا كان المعلمون على ضربين في زمن الجاحظ فهم على ضربين أيضا في هذا الزمن، فشتان ما بين بعض المعلمين وطبقة الشيخ محمد عبده والمعلم بطرس البستاني وغيرهما .

لتقاضي الأجر على التعليم نظرتان الواحدة نظرية والأخرى عملية . فالأولى تميل إلى جعل كل التعليم مجانا – أن يكون احتسابا لا اكتسابا – وعلى الأخص تعليم الدين والقرآن . ويرى المستشرق الشهير جولد صير " Goldzihr " " إن المتدينين في الإسلام حبذوا أن يكون التعليم مجانا كما حبذه أهل بقية الأديان " أم النظرة العملية فقد أباحت أخذ الأجر وإليك رأي الغزالي في هذا الموضوع :

"مسألة : فإن قلت أليس يجوز عند الشافعي رضي الله عند أخذ الأجرة على تعليم القرآن والنكاح بتعليم القرآن لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال زوجتكها بما معك من القرآن وهذا تعليم لغير الله تعالى؟ فأقول هذا جائز ونزيد على هذا فنقول: يجوز أخذ الأجرة على الأذان وإقامة صلا التروايح . ويجوز للمعيد أخذ الأجرة على مسائل معينة يكررها . وللمدرس مسائل يعينها يعينها نفسه فيها ولا ينبغي أن يظن أن إمام صلاة التراويح يأخذ الأجرة على الصلاة .

ومعلم الفاتحة له أن يأخذ الأجرة وإن كان تعليمها واجبا على المتعلم.

وكذلك للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم .

فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة يأخذ الرزق بلغة ميسرة للمقصود " . هذا رأي الغزالي نردفه بآراء الأئمة مالك وأحمد والشافعي فقد أجازوا أخذ الأجر على الرقية والطب وتعليم القرآن فيظهر أن كبار الأئمة أجازوا أخذ الأجر على تعليم القرآن ، وإن أجازوه على تعليم القرآن ، فلا ريب أنهم لم يحرموه على تعليم بقية المواضيع المدرسية . غير أنه إذ أنعمنا النظر في كلام الغزالي ، وجدنا أنه إنما يجيز أخذ الأجر كواسطة فقط لا كغاية . فهو يجيزه ليتفرغ المدرس لتدريسه ولا يزعج في أمور دنيوية مثل تحصيل الرزق لمعيشة العيال .

وأخذ الأجر لم يبق مبدأ نظريا بل طبق فعلا ، وكان عدد المعلمين بالأجر كبيرا، وقد ذكر المقري أن أهل الأندلس كانوا " يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة ". وذكر أيضا أن العباس كان " يعلم الحساب والنحو ويأخذ الأخذ على ذلك ". وقال يا قوت أن الرياحي " نزل البصرة وكان يعلم الصبيان بالأجرة وكان شاعرا " ويقول يا قوت أيضا عن محمد بن أحمد الكركرنحبي " أردت أن أقرأ القرآن على بعض القراء فامتنع على ، ثم قال لي : تقرأ على كل يوم عشرا وتدع مثقالا من الفضة . فقبلت " .

وإذا كان أخذ الأجرة على التعليم جائزا من الجهة الشرعية إذ أباحه كبار الأئمة ، وهكذا نرى أن المبدأ طبق فعلا . وبالطبع كان ذلك لحاجة المعلمين إلى الرزق غير أنه لا يمكننا الوقوف عند هذا الحد دون أن نبحث في أمر تحريم أخذ الأجر ، فإنه يظهر من ذكر أخذ الأجر أنه

وجد سبب خاص لذكره . فلو لم يكن خلاف في مسألة الأجر لما ذكرت في الاستشهادات المذكورة آنفا، فضلا عما مما رواه صاحب العقد الفريد: "لا يكون العالم عالما حتى تكون فيه ثلاث خصال: لا يحتقر من دونه. لا يحسد من فوقه، لا يأخذ على العلم ثمنا " . وممن لم يأخذ الأجر على التعليم الضحاك بن مزاحم وعبدالله الحارث إذ " كانا يعلمان الغلمان ولا يأخذان الأجر " .

ولا يخفى أن ذلك كان في أوائل القرن الثاني للهجرة . ويحكي عن جعفر بن محمد الموصلي (٢٣٢ هـ) أنه " كانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم لا يمنع أحدا من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب وإن كان معسرا أعطاه ورقا وورقا ، تفتح في كل يوم ". ويظهر أن الناس عيرت بعض المعلمين بأخذ الأجر على التعليم . ومما يذكر عن المبرد أنه " كان لا يعلم مجانا ولا يعلم إلا بأجرة ". وعلى كل حال ، لو لم يكن خلاف في مسألة الأجر لما قيل عن فلان إنه علم بأجر أو كان يأخذ أجرا إلخ . ولو لم يكن تباين في الرأي لما ذكر الأجر البتة .

ومهما كانت الحالة بشأن أخذ الأجر قبل زمن نظام الملك ، فمما لا شك فيه أنه أصبح مألوفا بعده ، إذ رتب ذلك الوزير المعاليم والرواتب للمعلمين وبذلك جعلهم تحت مراقبة الحكومة وطوع أمرها ، ولكن هذا النظام لم يرق جميع الأساتذة ، وقد أدلينا على ذلك في عدم رضا أبي أسحق الشيرازي عن النظامية في بغداد ، ومن الغريب أن نجد

في أخبار المدرسة الظاهرية في القاهرة " ألا يستعمل فيها أحد بغير أجرة ولا ينقص من أجرته شيئا " . فلماذا وضع هذا الشرط ؟ فهل رفض بعض الأساتذة أن يأخذوا الأجر ؟ أو هل كان الغرض منع تسخير المعلمين بالتعليم بلا أجرة ؟ .

كمية المعاليم

اختلفت قيمة المعلوم كما اختلفت الطرق في دفعه ، فمنهم من أخذ الأجر عن ختم القرآن أو إكمال كتاب سيبويه أو الألفية وما شاكل ذلك، فدفع الأجر إذا ليس في آخر اليوم أو الأسبوع أو الشهر ، بل عند إتمام العمل ، أي أن المقياس لم يكن الوقت بل النتجة العملية . ومما يرويه ياقوت " إن يهوديا بذل للمازني مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه فامتنع " . وقال أيضا أن أحدهم كان يدفع مثقالا من الفضة على قراءة عشر من القرآن كل يوم . ويقول جولد صير أن شمس الدين السيوطي أخذ درهما على تعليم كل بيت من أبيات الألفية . وإليك بعض الأخبار التي رويت عن المبرد " قال أبو محمد عبدالله بن درستويه النحوي : حدثني الزجاج قال كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه وكان لا يعلم مجانا ولا يعلم إلا بأجرة . فقال لي أي شئ صناعتك قلت أخرط الزجاج وكسبي في كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف وأريد أن تبالغ في تعليمي وأن أعطيك في كل يوم درهما وأشرط لك أن أعطيك إياه أبدا . قال فلزمته وكنت أخدمه في أموره مع ذلك وأعطيه الدرهم فينصحني في التعليم حتى استقللت .

ذلك كان نوعا من الأجر ، غير أنه تطور حتى أصبح مرتبا يدفع في كل شهر كما تدفع المرتبات اليوم ، وقد اختلف المعلوم طبعا فكان على حسب مقدرة وشهرة الأستاذ وعلى حسب العصر ، ويجب أن لا يغيب عن الذهن أيضا أن قيمة الدرهم والدينار اختلفت على تقلب الأيام وعلى اختلاف البلدان العربية .

ذكر ابن جبير أن عمالة المعلم في مصر في القرن الثاني عشر للميلاد كانت حول الخمسة دنانير في الشهر إذ قال: "فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر وهي عشرة مؤمنية، ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه " . وأما الدينار فكانت قيمته نحو النصف جنيه عندنا . ويقول السبكي أن أحد المدرسين امتحن في خلق القرآن ولم يقر بخلقه فخسر مرتبه الذي بلغت قيمته ألف درهم في الشهر . وإذا كان الدينار يساوي عشرين درهما كان هذا المرتب يساوي خمسين دينارا أو خمسة وعشرين جنيها في الشهر . ومما ينص عليه المقريزي أن صلاح الدين أنشأ المدرسة الناصرية في القاهرة " ورتب مدرسا يدرس الفقه وجعل له في كل شهر من المعمول عن التدريس أربعين دينارا معاملة صرف كل دينار ثلاثة عشر درهما وثلث دره ". وكان معلوم الشيخ مجد الدين في المدرسة السيوفية أحد عشر دينارا في كل شهر . ويقال في أخبار المدرسة البلطاسية " أن راتب مدرسها وهو الشيخ قوام الدين مئة رغيف وكبش واحد وخمسون درهما في اليوم " .

فيظهر من هذه الأمثلة أن مرتب المدرس كان يتراوح بين الخمسة دنانير والخمسين في الشهر،وهذا يعادل الجنيهين إلى الخمسة والعشرين ، وإذا سمح لنا أن نقدم رأيا قلنا إن كلام ابن جبير أقرب إلى الحقيقة . أي أن مرتب المعلم كان حول الجنيهين أو الثلاثة في الشهر ، ولا يخفى أن الجنيهين في القرن الثاني عشر للميلاد ربما كانا يعادلان اليوم خمسة عشر جنيها . ولا شك في أن المدرسين ذوي الشهرة كانوا يتقاضون ما يتراوح بين الأربعين والخمسين دينارا غير أننا نظن أنه لم يحصل على ذلك المبلغ إلا العدد القليل .

المعلمون وألقابهم

نشأت الألقاب التعليمية عند الافرنج من أصل شبيه بالأصل العربي، ورجع الإثنان إلى الإجازات أو إلى الوقت الذي أظهر فيه الطالب الكفاية للتعليم . فبعد أن أنهى الطالب الإفرنجي دروسه واستحق أن يكون معلما أعطى لقب " بكلريوس " وهو أحط الدرجات في سلم التعليم . ثم لقب معلم أو أستاذ (Magister) وأخيرا منح رتبة الدكتور وهي أعلى رتبة وصل إليها المعلم وكان للمعلمين عند العرب رتب وألقاب ، وهي ، وإن لم تعط لحامليها في حفلات رسمية ، منحت لهم حسب استحقاقهم ، وكان المانح إما اساتذتهم أو أهل العلم أو الشعب أو الحكومة . وإليك بعض الرتب المعروفة .

أ-المعلم

يظهر أن هذا اللقب كان أحط الرتب العلمية ، إذ كثيرا ما قرن بتعليم الأولاد والصبية، والكتبا والكتاب. ولقد أظهرنا ما لمعلم "الأولاد" و "لمعلم الصبيان" من المقام الاجتماعي عند الناس. وإذا كان أحد المعلمين ذا فضل ذكرت الأخبار ما له من الفضل كي يعوض ذلك عما يخسره من كونه " معلما " . فقد قيل عن أبي غالب عبدالحميد الكاتب: "وكان في الكتابة وفي كل فن من العمل إماما . وكان أولا معلم صبية " ويذكر ياقوت أن أحمد بن سهل البلخي " كان معلم للصبيان ثم رفعه العلم إلى مرتبة عالية " . وما جاء في تحقير اسماعيل بن عباد ما يأتي : "لو جرت الأمور على موضوع الرأي وقضية العقل لكان معلما " . وخلاصة القول أن لقب " معلم " لم يدل على الأدب والعلم والمقدرة والمكانة الاجتماعية بل دل على عكس ذلك .

ب- المؤدب

من الصعب إظهار الفرق بين المعلم والمؤدب ، هذا إذا درسنا الفرق في الاستعمال أو القرينة، وأما من جهة الاشتقاق فربما كان المعلم الذي اهتم بالمعلومات، والمؤدب الذي اهتم بالأخلاق والآداب التي يجب أن يتحلى بها الطلبة، ولا يستبعد أن يكون المؤدب معلما خصوصيا يذهب إلى بيوت الخاصة لتأديب أولادهم ، وكثيرا ما يرد هذا الاستعمال في كتاب الأغاني ، إذ قيل أن أبا إياد كان "مؤدب" المعتصم

، وكان عجرد " يؤدب " ولد العبارس بن محمد الهاشمي، وكان قطرب "مؤدبا" لولد المهدي . وكان المبارك " مؤدب " الفضل بن يحيى، وكان أبو حفص النحوي " مؤدبا " لال طاهر ، وتدل هذه الأمثلة على أن المؤدب كان معلما خصوصيا ، وقد يستنتج أيضا أن كلمة "مؤدب" كانت مرادفة " لمعلم " إذ تستعمل كلمة " مؤدب " في كتاب الأغاني و"معلم" في البيان والتبيين. فجاء في الأغاني "إن الحجاج بن يوسف أراد "مؤدبا" لولده . أما الجاحظ ذكر أن الحجاج قال " المعلم " ولده فكان المؤدب عند الأصبهاني هو المعلم عند الجاحظ .

ج- المدرس

غير خاف أن المدرس هو اسم فاعل من درس وأنه القائم بالتدريس في المدرسة ، وإذا تمسكنا بتعريف " المدرسة " كمعهد راق مثل الكلية، أصبح المدرس أستاذا أرقى درجة من المعلم والمؤدب ، ولا شك في أن المدرس جاء مع المدرسة من القرن السادس للهجرة ، ولهذا لا ذكر له قبل ذلك الوقت ومما يبين أنه فرق بين المعلم والمؤدب والمدرس ما ذكره المقريزي: "وشرط أن يكون فيها مدرس مالكي ومدرس شافعي ومؤدب أطفال". فيظهر من هذا أن المدرس درس الشبان والمؤدب أدب الأطفال والصغار. وللإيضاح نأتي بتعريف القلقشندي للمدرس إذ قال: "إن المدرس هو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغير ذلك " .

د- المعيد

تأتي الإعادة عند القلقشندي بعد التدريس أي أن مقام المعيد يأتي مباشرة بعد مقام المدرس. "وأصل موضوعه إنه ألقى المدرس الدرس وانصراف أعاد (المعيد) للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه " . وكثيرا ما يرد ذكر المعيد في الكتب العربية فيقول ياقوت عن أحدهم أنه " أقام بحلب معيدا بمدرسة الزجاجين قانعا باليسير من الرزق فإذا زادوه عليه شيئا لم يقبله " . وعند زيارة ابن بطوطة المدرسة المستنصرية ببغداد وجد فيها معيدين يساعدان المدرس في عمله . وكيفية ذلك أن " يقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه " .

ومن وظائف المعيد وصفاته التي يذكرها ابن جماعة الكناني في تذكرة السامع والمتكلم ، أن يكون " من صلحاء الفضلاء أو فضلاء الصلحاء صبورا على اختلاف الطلبة حريصا على إفادتهم قائما بوظيفة اشتغالهم .. وينبغي للمعيد في المدرسة أن يقدم اشتغال أهلها على غيرهم في الوقت المعتاد أو المشروط إذا كان يتناول معلوم الإعادة لأنه يتعين عليه ما دام معيدا أو اشتغال غيرهم نقل أو فرض كفاية .

وأن يعلم المدرس والناظر لمن يرجى فلاحه ليزاد ما يستعين به فيشرح صدره وأن يطالبهم بعرض محفوظاتهم ممن لم يعين ذلك غيره . ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس ولهذا سمي معيدا ".

هـ- الشيخ

الشيخ لغة الكبير في السن. ويقول محيط المحيط: " إطلاق الشيخ على الأستاذ والعالم وكبير القوم ورئيس الصناعة إنما هو باعتبار الكبير في العلم والفضيلة والمقام ونحو ذلك " . واستعمل لقب (شيخ) كمرادف للقب " أستاذ " إذ يرد عند ابن خلدون : " سمعن من شيوخنا في مجالس التعليم ". و " لقد سمعت كثيرا من شيوخنا الخ . " وقيل عن كثيرين أن الواحد منهم "كان عدد شيوخه يزيد على أربعة آلاف شيخ" . فإذا كان لقب " الشيخ لقبا علميا تعليميا كما كان دينيا . ويظهر أن هذا اللقب جاء متأخرا إذ لم يرد له ذكر في كتب الجاحظ ولم يرد في كتاب الأغاني ولا في الكامل للمبرد .

و- الأستاذ

أطلق هذا اللقب الفارسي أولا على أصحاب الصنائع ، ويدعو العامة اليوم " بالأسطا " من يتقن إحدى الحرف ، ثم أطلق على من أظهر مهارة في التعليم ، أما اليوم فقد ساء حظ هذا اللقب وابتذل استعماله حتى أصبح ينادي به معلمو الكتاتيب كما ينادي به الأساتذة الكبار ، وممن لقب بهذا اللقب " الأستاذ أبو منصور إذ كان ماهرا في فنون عديدة " ومنهم أيضا الأستاذ أبو الحسن بن جابر .

ز- الرحلة

ومن ألقاب أكابر العلماء " الرحلة " وهو الشهير في العلم والتعليم حتى أن الطلبة ترحل إليه من كل ناحية .

ح- العالم

أطلقت هذه الرتبة على كل من علم ، للتفرقة بينه وبين الجاهل . وكان العالم أولا الواقف على العلوم الدينية .

ط- الإمام

لاريب في أن رتبة " إمام " لأعلى درجات السلم العلمي ، فقد أعطى هذا اللقب الشريف لمن أظهر نبوغا لا مراء فيه ، وكفى بذكر إمام الحرمين والغزالي والأئمة الأربعة : أحمد بن حنبل وأبو حنيفة والشافعي ومالك . هذا ويوافق الاشتقاق اللغوي اللقب الفني لأن الإمام هو من كان في مقدمة القوم فعلا ، أي إنه كان هو المتبوع والناس أتباع ، فالإمام في العلم المرجع والثقة في موضوعه ، وإن أردنا أن نقابل لقب " إمام " بألقاب هذا العصر تحتم علينا مقابلته بالألقاب التي تليق بسبنسر ودارون وباستور ومن كان في طبقتهم .

ونقول في الختام إن استعمال هذه الألقاب كان يختلف بحسب اختلاف البلدان والعصور فقد ذكر الرحالة المقدسي أنه سمي بأسماء كثيرة ، قال : "ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها :

مقرئ ، فقيه، مذكر ، إمام ، مؤذن ، خطيب ، متأدب ، متفقه ، معلم ، أستاذ ، شيخ ، وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها " .

لباس أو زي العلماء والمعلمين

للعلماء زي خاص في كل بلد ، فها هم الأساتذة عند الإفرنج يلبسون جبة العلم في المحافل الرسمية ، ولبسها بعضهم في أثناء إلقاء الدروس أيضا .

ويرجع الأصل في هذه الألبسة إلى العصر الذي كان التعليم فيه في أيدي الرهبان ورجال الدين الذين لبسوا الجبب لوقاية أنفسهم من قارص البرد ، وأما اليوم فما هي إلا رموز وشارات علمية تدل ألوانها المختلفة وطياتها المتنوعة على رتبة الأستاذ ومقامه العلمي .

أما العرب فأهم شاراتهم العلمية العمامة والجبة والطيلسان ، ومع أن العمامة لبسها كل العرب من علماء وغيرهم ، فقد كانت عمامة العالم أكبر من غيرها ، وعلى الرغم مما طرأ على الألبسة العربية من الطوارئ والتغييرات ، فإن لبس الدين والعلم لم يتغير إلا قليلا ، وها إن العمامة والجبة اليوم لاتزالان من شعار ولباس أهل الدين والعلم أيضا .

ولبس العلماء الطيلسان : وهو شاش يوضع على الرأس أو على الكتف . قال ابن جبير إنه وجد خطيب مكة وعليه طيلسان شرب رقيق . وذكر ابن بطوطة أنه رأى عالما عليه طيلسان أسود ، ويقول المستشرق

دوزي إن العلماء والشيوخ في الأندلس لبسوا الطيلسان ووضعوه على رؤوسهم . والمقدسي يقول: " أما الفقهاء والكبراء فيتطيلسون ... وبمرو أنصاف العلماء يجعلون الطيالسية على أحد أكتافهم مجتمعة فإذا أرادوا أن يرفعوا فقيها أمروه بالتطليس" . ومن الغريب أن الإفرن اليوم يمارسون بعض هذه العادات فإن جبة الطالب لا طيلسان لها ، ولكنه حينما ينال رتبة البلكوريا يتطيلس . ولقبعة الطالب اليوم شرابة يجب أن توضع إلى الشمال ما دام في دور الطلب ، وأما عند إنهاء الطلب وعند التقدم إلى رئيس الجامعة لنيل اللقب العلمي تنق الشرابة إلى اليمين ومن رأى المستشر لاين " LANE " أن طيلسان العرب يشبه طيلسان الإفرنج لا في حالته الحاضرة فقط بل في أصله أيضا .

Lam inclined to think it is similar not only in this respect but also in its origin to our academic gowns and hoods "

وبما أن العب سبقوا الإفرنج في بناء الكيات والمدارس، سبق، هم كذلك في استعمال الألقاب والشارات العلمية ، كان من الممكن أيضا أن نرجع العادات الافرنجية المختصة بهذا الأمر إلى أصل عربي .

الفصل الثالث

الطلبة

الرحلة

أطلق على الطلبة أسماء شتى ، منها القارئون والسامعون والمريدون والفقهاء والتلاميذ، وكان للطلب عند العرب ميزات كثيرة ربما كان أهمها الرحلة، إذ كان الطالب العربي يتجشم مشاق السفر وترك الأهل والوطن للاستماع لعالم انتشر صيته في الآفاق ، وكان مراكز العلم كثيرة متوزعة في كل أقطار العالم العربي. وكان هذا التوزيع مما ساعد الطلبة على طلب العلم، فكانت مرو وبخاري وسمرقند مناهل العلم في الشرق ، وبغداد ودمشق والموصل وحلب وبيت المقدس والقاهرة والإسكندرية في الشرق الأدنى، والقيروان وتلمسان ومراكش وقرطبة وأشبيلية في المغرب والأندلس.

ومما ساعد الطلبة على الطلب أيضا ، وجود مملكة عربية متسعة الأطراف ، ممتدة من سمرقند إلى قرطبة ، وأن اللغة الرسمية في هذه المملكة كانت اللغة العربية، ولذلك لم يعق التلميذ لغات أجنبية ، وكتب أجنبية، وعادات وتقاليد أجنبية ، والذين رحلوا في طلب العلم كثيرون لا حاجة إلى تعدادهم ، غير أنه لا بأس من ذكر بعضهم لإظهار شئ من حالة العلم والتعليم والطلب في تلك الأيام .

يحكى عن أبي العلاء المعري أنه " رجع إلى المعرة ولزم منزله وشرع في التصنيف ، أخذ عنه الناس، وسار إليه الطلبة من الآفاق " . وكان ممن جاء إلى المعرة للطلب أبو زكريا يحيى المعروف بالخطيب التبريزي شارح ديوان الحماسة . وهاك ما يذكره ابن خلكان في ترجمته : " كان سبب توجهه إلى أبي العلاء المعري أنه حصلت له نسخة من كتاب التهذيب في اللغة تأليف أبي منصور الأزهري في عدة مجلدات لطاف ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدل على المعري ، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوبا ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد ، وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب المذكور " .

أما المسافة من تبريز إلى المعرة فتقرب من الثمانمئة كيلو متر ، فلو قطع أبو زكريا عشرين كليو مترا في اليوم ، لاستغرق مسيره نحو الأربعين يوما ، فلا يمكننا إلا أن نعجب بتعطش ذلك الرجل للعلم ، وتجشمه المشاق في سبيله ، وحمله الكتب في مخلاة – كل ذلك " لتحقيق ما فيها " . وغير خاف من أن العلم الحقيقي لا يقوم إلا على أيدي رجال مثل أبي زكريا .

وإليك مثلا لأبي القاسم ، سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني الذي " رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن ومصر وبلاد الجزيرة العراقية ، وأقام في الرحل ثلاثا وثلاثين سنة ، وسمع

الكثير، وعدد شيوخه ألف شيخ " أما تاج الإسلام أبو سعد الذي يقال له أبو سعيد عبدالكريم " فرحل في طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها ، وسافر إلى ما وراء النهر وسائر بلاد الجبال والحجاز والعراق والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد التي واقتدى بأفعالهم الجميلة "وآثارهم الحميدة ، كان عدد شيوخه يزيد على أربعة آلاف شيخ . وإذا راجعنا ما كتبه المقري وجدنا أن عددا وافرا من رجال الأندلس رحلوا إلى المشرق لإكمال علومهم. وكان أحدهم أبو عبدالله محمد بن مفرج القرطبي الذي بعد أن "سمع بقرطبة رحل سنة ٣٧٧ فسمع بمكة من الأعرابي ولزمه حتى مات... وسمع بجدة وبالمدينة ودخل صنعاء وزبيد وعدن وسمع بها من جماعة، وسمع بمصر من البرقي صاحب أحمد البزاز ، وسمع من السيرافي وجماعة كثيرة ، وسمع بغزة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا والرملة وصور وقيسارية والقلزم والفرما والاسكندرية ، فبلغ عدد شيوخه المائتين وثلاثين شيخا " . ولا يمكننا إلا أن نستغرب صرف هذا الوقت الطويل ، وزيارة كل هذه الأقطار وكثرة عدد الشيوخ . هذا وإن كان ذلك في مقدور الطلاب في العصور الوسطى ، فإنه قد خرج عن مستطاع طلاب اليوم ، لأن الحالة الاقتصادية وضيق الوقت قلما يساعدان الطالب على الرحلات التي تستغرق السنين الطوال ، وعلى كل حال ، فلابد أن الحج وزيارة الأماكن المقدسة والتاريخية كان لهما أثر في إغراء الطلبة بالرحلة ، فإنهم في ذلك كانوا قد أصابوا عصفورين بحجر واحد إذ قاموا بفرائض الحج وفي الوقت نفسه جلسوا عند قدمي كل من اشتهر في العلم

والفضل والأدب ، ولا شك أيضا في أن الرحلة والحج ساعدا كل المساعدة على تقوية الروابط الدينية والقومية والاجتماعية والعلمية في كل أنحاء البلاد العربية ، إذا كانت الرحلة العلمية مزية تذكر في الحياة العلمية عند العرب ، قال ابن خلدون " فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال " .

عدد الطلاب

إنه لمن المستحيل إحصاء من وجد من الطلبة في أي عصر من العصور ، غير أنه يمكننا البحث في هذا الموضوع لعلنا نقف بعض الوقوف على كثرة أو قلة الطلاب عند العرب . وربما وجدنا ضالتنا المنشودة في معجم البلدان لياقوت حيث يقول إنه ينسب إلى إحدى قوى مرو " قوم من أهل العلم " ، وينسب إلى جوين " خلق كثير من الأئمة " ، وينسب إلى جيرفت " جماعة من العلماء " ، وينسب إلى جيرنج " جماعة وافرة من العلماء " ، ويذكر عن جيلان في طبرستان " وقد نسب إليها من لا يحصى من أهل العلم في كل فن وعلى الخصوص في الفقه " . وإذا استشهدنا بغير ياقوت حصلنا على النتيجة نفسها من جهة كثيرة الطلب . قال ابن حوقل عن هراة " إن بهذه المساجد خلقا من الفقهاء " . وقال أيضا " قد أخرجت نيسابور من العلماء كثيرة ، ونشأ بها على مر الأيام من الفهماء من شهر أمره وسما قدره وعلا ذكره " .

تلك كانت الحالة في خراسان ، وإذا سرنا إلى العراق وجدناه غاصا بالطلبة يؤمونه من المشرق ومن المغرب ، فقد كانت بغداد ملأى بالفقهاء والعلماء والطلاب والأطباء والشعراء والأدباء، وسبق أن استشهدنا بكلام اليعقوبي إذ قال أنه وجد في بغداد "أكثر من مائة حانوت للوراقين وثلاثين ألف مسجد" فكثرة حوانيت الوراقين وكثرة المساجد دليل على كثرة الطلب، والتهات على العلم، ورواج بضاعة الأدب. ويؤيد هذا الرأس ما رواه ابن جبير عن كثرة المدارس في بغداد عند زيارته لها، وإن كثرت المدارس كثر عدد الطلاب، وقد قال المقدسي" ومدينة حلوان بغداد كثيرة

الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة". وقال ياقوت عن المبارك بن سعيد " رأيت مكتبه وكان مكتبا حفيلا مزدحما ". وذكر الأب انستاس الكرملي إن شروط المدرسة المستنصرية كانت: " أن يكون عدة الفقهاء ٢٤٨ من كل طائفة، وأن يكون في الدار المتصلة بالمدرسة ثلاثون صبيا أيتاما " .

ثم إذا أتينا إلى دمشق ألفيناها عاصمة كتاتيب ودور قرآن ودور حديث ومدارس فقه ومدارس طب ، وكفانا دليلا كتاب " تنبيه الطالب وإرشاد الدراس "لأبي المفاخر عبدالقادر النعيمي الذي اختصره عبدالباسط العلماوي ، أما ما يذكره هذا الكتاب فهو أنه وجد في دمشق المعاهد الآتية :

٧ دور للقرآن

١٩ دارا للحديث

٥٩ مدرسة شافعية

٤٥ مدرسة حنفية

١١ مدرسة حنبلية

٣ مدارس للطب

أضف إلى هذه المعاهد الجامع الأموي الذي يقول عنه ابن جبير أنه أجرى فيه كل يوم لأكثر من خمس مائة إنسان ، وأما رواية ياقوت فهي أنه " دخل بعض الأكابر جامع دمشق أو صور ورأى حلقة عظيمة للخطيب ، والمجلس غاص فصعد إلى جانبه وكان استكثر الجمع ، فقال له الخطيب : القعود في جامع المنصور مع نفر يسير أحب إلي من هذا " . وازدحام الطلبة كان أيضا في المدينة ، إذ يروي ياقوت عن أبي سملة : " قال لي ورش خرجت من مصر إلى المدينة القراءة على نافع فإذا هو لا يطاق كثرة أبناء المهاجرين والأنصار ... فجلست خلف الحلقة " . ويظهر هذا الازدحام في حلقات التدريس في الأندلس ، إذ يذكر المقري أنه حدث عن بعضهم أنه كان في الصف الثاني من الحلقة . وكان الإقبال على الطلب زائدا في مصر كما كان في بقية البلدان العربية ، والشاهد على ذلك كثرة المدارس والجوامع والمعاهد العلمية التي يصفها المقريزي ، ومما يقوله بهذا الصدد أنه كان " بجامع عمرو بن

العاص بمصر قبل الوباء الكائن في سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه " . وقد نقل المستشرق متز (metz) عن أحد مؤرخي العرب أنه وجد ١٢٠ حلقة تدريس في أحد الجوامع في القاهرة " .

ازدحمت المدارس كما ازدحمت الجوامع بالطلاب ، وهاك بعض الأخبار عن المدرسة الصاحبية البهائية بمصر : " كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها ، ويتشاحنون في سكن بيوتها ، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة " .

فالأدلة كثيرة على أن عدد الطلبة كان كثيرا حتى غصت الجوامع والمدارس بالطلاب الذين اضطروا أن يجلسوا في حلقات ضمن حلقات لسماع العلم ، وقد حكى عن الزيات أنه " إذا جلس إلى الدرس يجتمع له نحو من ٤٠٠ أو ٦٠٠ من الفقهاء يحضرون عليه " . ويروى عن أبي حامد الإسفراييني أنه كان يحضر مجلسه سبعمائة فقيه " . وقيل إنه حضر حلقة أمام الحرمين ٤٠٠ طالب " .

المقدسي عن مصر : " وبين العشاءين جامعهم مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ، وعددت فيه ١١٠ مجالس " . ويقول ابن حوقل أنه وجد ٣٠٠ معلم في مدينة بلرم وحدها ، فإذا كان عدد المعلمين ٣٠٠ فكم يكون عدد الطلبة ؟

وصفوة القول أن عدد الطلبة والمستمعين كان كثيرا عند العرب ، ولم ينحصر الإقبال على العلم في المدن دون القرى ، ولا في إقليم دون آخر ، فقد نبغ كثيرون من العلماء من قرى تكاد لا تعرف ، وتدفقت الطلبة من كل ناحية وانتظمت في حلقات المشاهير مثل أبي إسحق الشيرازي وإمام الحرمين والإسفراييني والسلفى والغزالي وغيرهم .

الديموقراطية في الطب

لقد قيل " ليكن الفقير والغني عندك سواء في تعلم العلم " .وفي الحق أنه يساوي الفقير والغني في طلب العلم ، والأمثلة على هذه كثيرة فقد تعلم عدد كبير من أولاد الفقراء والعامة ، وكان الشاعر بشار بن برد من هذه الطبقة ، إذ كان أبوه طيانا يضرب اللبن . وكان أبو العتاهية يبيع الفخار بالكوفة ، وروى ياقوي " حدثني من رأي الجاحظ يبيع الخبز والسمك " ، وكان أبو إسحاق الزجاج النحوي يخرط الزجاج ولهذا سمي بالزجاج ، وقيل عن أبي تمام " إنه كان يسقي الناس ماء بالجره في جامع مصر ، وقيل كان يخدم حائكا ويعمل عنده بدمشق وكان أبوه خمارا بها " ، ولا حاجة إلى الإفاضة فيما هو معروف عن الغزالي فقد كان أبوه " فقيرا صالحا لا يأكل إلا من كسب يديه في عمل غزل الصوف " . وربما توضح الرواية الآتية دأب الطلبة الفقراء على الطلب :

" ولما ناظر ابن حزم قال له الباجي :

أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان إليه تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق .

فقال ابن حزم :

هذا الكلام عليك ، لأنك إنما طلبت العلم وكنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجِ به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة " .

فالطلب كان ميسورا للجميع ، ولا شك في أن صبغة الطلب الدينية كانت مما جعل كل طبقات الناس تعطف على الطلاب وتساعدهم ماديا وأدبيا ، دع عنك الديموقراطية العربية إذ لم يوجد عندهم طبقات اجتماعية لا تخالط بعضها بعضا كما في الهند ، أو قلما تتخالط اجتماعيا كما هي الحالة في أوروبا ، فأولاد النبلاد في أوروبا يذهبون اليوم إلى المدارس العالية والخاصة ، بينما الفقراء محرومون منها ، أما عند العرب فالأدلة على عكس ذلك ، إذ فتحت أبواب العلم على مصراعيها للأمير وللصعلوك على حد سواء ، على أن الملك والأمراء كانوا يتخذون لأبنائهم أساتذة مخصوصين .

المنح أو الاعانات المالية للطلبة

لقد سبق لنا القول أن نظام الملك كان أول من أجرى الأرزاق على الفقهاء وقام بنفقات الطلاب ، واقتفى أثره في حبس الأوقاف على

المدارس رهط من الملوك والأمراء والوجهاء ، حتى أنه تمكن أفقر الناس، كما ذكرنا، من تحصيل العلم على نفقة أهل البر والإحسان . وللإيضاح نحبئ بملاحظات ابن جبير بشأن هذه العناية بالطلبة . قال :

"ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقي كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه ، وإجراء يقوم بجميع أحواله .

واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيه متى احتاجوا إلى ذلك ، ونص لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر بمصالحهم التي يشيرون بها من علا وغذاء " . وإليك ما يقوله أيضا عن التسهيلات للطلب في بغداد :

"ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم " . وإذا تتبعنا خطوات ذلك الرحالة إلى دمشق وجدنا ذاك السخاء نفسه على الطلبة . ولم يعط الطلبة في دمشق التعليم والأكل فقط ، بل أعطيت لهم الكسوة أيضا ، قال : " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتضرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينة كثيرة .

فأولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها " .

ويؤيد ابن بطوطة مقال ابن جبير ويزيد عن دمشق أنه " ومن أراد الطلب أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة". وروى عن مدرسة واسط أنه "يعطي لكل متعلم بها كسوة في السنة، ويجري له نفقته في كل يوم".

ويحكي ابن خلكان " أن أبا الحسن على بن محمد – وزير المقتدر بالله – كان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين " . ولم تكن مصر لتقل عن العراق والشام في ذلك ، إذ يروي المقريزي عن طلاب المدرسة الحجازية أنه أعطى " لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس ، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف " . ومدرسة أخرى " أجرى لكل واحد من طلبتها ثلاثة أرطال من الخبز في كل يوم وثلاثون درهما فلوسا في كل شهر " .

وعلى الجملة فقد أشبهت المدارس العربية في غابر مجدها المدارس الافرنجية وبالأخص الأميركية اليوم ، من حيث كثرة أوقافهم وعدة المنح (Scholarships) التي أعطيت للطالب النجيب الفقير . لم يكن الفقر عقبة في سبيل الشاب الذكي ، لأن المدارس كانت تقوم بنفقاته من طعام ومنام ولباس وتعليم وعناية طبية . وربما كان الأزهر اليوم خير مثال على وجود العرب وسخائهم على العلم ، وإننا لنرجو في الختام أن يقتفي عرب اليوم أثر عرب الأمس في تمهيد كل عقبة وإزالة كل عائق يعترض الطلاب في طريق العلم ، وليت القوم يدرون ما لهذا السخاء من التأثير والخطورة في إعادة حياة العرب العلمية وإرجاع مجدهم .

النصارى والطلب

من المعروف أن العرب في صدر الإسلام وما بعده استخدموا عددا ليس بقليل من الموالي وأهل الذمة لتعليم أولادهم ، ومما يذكر عن الحجاج أنه أراد مؤدبا لولده فقيل له : ههنا رجل نصراني عالم وههنا مسلم علمه كعلم النصراني . ففضل الحجاج المعلم المسلم . وهذا يدل ، ولو دلالة سلبية ، على أن المسلمين العرب اعتادوا أخذ المؤدبين من النصارى ، لأنهم لو لم يعتادوا ذلك لما عرض المعلم النصراني على الحجاج أو طلب منه المفاضلة بينه وبين المعلم المسلم ، ثم لما اشتد ساعد العلم عند المسلمين وكثرت مدارسهم ، اشترك طلبة النصارى مع طلبة المسلمين في طلب العلم ، وإليك الدليل :

ذكر النعيمي في كتابه " تنبيه الطالب وإرشاد الدراس " الذي ترجمه إلى الإفرنسية مستشرق إفرنسي إن المدرسة التقوية كانت داخل باب الفراديس وإنها من أهم مدارس دمشق وقد بنيت سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) على يد الملك المظفر تقي الدين عمر ، وإنه درس بهذه المدرسة جماعة من الأروام والفرس . وفي وصف المدرسة الرواحية نجد ما يأتي " كانت داخل باب الفراديس وبناها زكي الدين أبو القاسم التاجر الملقب بابن رواحة المتوفي سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) . واشترط الواقف شروطا مستحيلة على المدرسين، ومنع الدخول إلى هذه المدرسة على "اليهود والنصارى والحنابلة" ويقول الأب انستاس الكرملي: "وأما النصارى فكانوا مخيرين في إرسال أولادهم إلى مدارس العرب أو إرسالهم أولادهم إلى مدارس العرب إو إرسالهم إلى مكاتبهم ، وأول من حظر عليهم تعليمهم في مدارس المسلمين ، الخليفة المتوكل .

قال في أخبار فطاركة المشرق من كتاب المجدل لمارس بن سليمان ص ٧٩ " وأمر المتوكل . قال في أخبار فطاركة المشرق من كتاب المجدل لمارس بن سليمان " وأمر المتوكل بأن لا تعلم أولادهم (أي أولاد النصارى) في مكاتب العرب " ويثبت هذا القول نص المقريزي : "ونهى المتوكل أن يستعان بهم (النصارى) في أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم " ولم يتعلم طلاب النصارى العلوم العربية وحدها في مدارس المسلمين، بل قرأ بعضهم التوراة والإنجيل على بعض علماء المسلمين، ويذلك على ذلك قول ابن خلكان عن أبي الفتح موسى الملقب بكمال الدين الشافعي " وكان أهل الذمة يقرأون عليه التوراة والإنجيل ، ويشرح لهما هذين الكتابين شرحا يعترفون إنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله " .

يظهر مما سبق أن النصارى طلبوا العلم في مدارس المسلمين، ولو لم يفعلوا ذلك لما منعهم المتوكل، وأن النصارى علموا أولاد المسلمين، وأن المسلمين علموا أولاد النصارى حتى التوراة والإنجيل، وهذا يدل على العلاقات الودية التي كثيرا ما وجدت بين الفريقين وبقيت إلى أن عكر كأس صفائها المغالون مثل الحاكم بأمر الله والمتوكل وغيرهما ويظهر أن العرب يحنون إلى تلك الأيام والعلاقات ، فإننا نرى اليوم أولاد المسلمين والنصارى من العرب يتعلمون جنبا إلى جنب في المدارس الأميرية والمدارس الخصوصية ، وكفى بقول الشاعر دليلا على ما نحن في صدده :

وإني ، وإن كانوا نصارى ، أحبهم ويرتـــاح قلبـــي نحـــوهم ويتـــوق

الفصل الرابع

تعليم النساء

جاء في كتاب البيان والتبيين الوصية الآتية: "لا تعلموا بناتكم الكتاب (أي الكتابة) ولا ترووهن الشعر، وعلموهن القرآن ومن القرآن سورة النور". وقال ابن بسام " ولا يعلم الخط لأمرأة ولا لجاية لأن ذلك مما يزيد المرأة شرا . وقد قيل إن المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقي سما " .

ومما يروى من الحديث عن عائشة أم المؤمنين أنه يجب أن يمنع النساء عن تعليم الكتابة ويكتفي بتعليمهن سورة النور وصناعة الغزل ، ويظهر مما سيأتي أن هذه الوصايا وهذه الآراء لم تحفظ ولم تطبق ، إذا ضرب بعض النساء بسهم كبير من العلم والتربية منذ نشوء الإسلام إلى وقتنا هذا . قال البلاذري في كتاب فتوح البلدان " إن النبي قال للشفاء بنت عبدالله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة ، وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية " وقد ذكر البلاذري أيضا أن " حفصة زوج النبي كانت تكتب ، وكذا كانت أم كلثوم بنت عقبة تكتب ، وقالت عائشة بن سعد " علمني أبي الكتاب " . وروى البلاذري أيضا " حدثني أبو الوليد عن الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمته عن أمها كريمة بنت المقداد أنها كانت " تكتب " .

وكانت عائشة تقرأ المصحف ولا تكتب ، وأم سلمة أيضا كانت تقرأ ولا تكتب . فيستنتج أن النساء اللواتي كن يقرأن أو يكتبن في صدر الإسلام كن الشفاء وحفصة وأم كلثوم وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد وعائشة وأم سلمة – أي سبع نساء . وهكذا يقرب عدد اللواتي كن يكتب من نصف عدد الذين كانوا يكتبون عند ظهور الإسلام . وإذ يذكر البلاذري أنه "دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم "يكتب". وكان منهم عمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة وطلحة ويزيد بن أبي سفيان وأبو حذيفة ومعاوية ، وهذا ومع أن بعض النظريات كانت لا تشجع تعليم البنات كما مر ، فكيفى المسلمين فعل النبي لما أظهر رغبته في تعلم النساء القراءة والكتابة ، وقد قال أيضا طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، والأمثلة كثيرة على النساء العربيات المسلمات اللواتي تعلمن القراءة والكتابة والنحو وروين الحديث ، وزد على ذلك أنهن لم يتعلمن فقط بل علمن غيرهن ، وكن ممن درس على النساء بعض الرجال أيضا كما سنرى وللبيان إليك أسماء النساء اللواتي ورد لهن ذكر في كتاب " تهذيب الأسماء " للنووي :

١– أسماء بنت أبي بكر الصديق : أخت عائشة لأبيها وأم عبدالله بن الزبير . والكل يعرف احترام عبدالله بن الزبير لأمه أسماء ، وكيف أنه استشارها في العمل حينما تغلب عليه الحجاج ، وكلنا يذكر قولها لابنها : " يا بني عش كريما ومت كريما " . وأما نصيب هذه المرأة الفاضلة من الأدب فيظهر من أنه روى لها ستة وخمسون حديثا عن رسول الله ، ويقال إن أسماء شهدت غزوة اليرموك مع

زوجها الزبير ، وإنها كانت شديدة البأس وذكية وبلغت المائة من العمر ولم تسقط لها سن ، ولم تضعف قواها العقلية .

٢- عائشة : وليس بنا حاجة إلى الافاضة في بيان ذكائها ، فإنها سميت بأم المؤمنين ، وكانت تعرف الكتابة ، ونالت احترام النبي وثقته حتى إنه أمر الناس أن يأخذوا نصف دينهم عنها ، ويذكر النووي أنه روى لها عن رسول الله ألف حديث .

٣- أم الدرداء : وهي جديرة بالذكر إذ كانت زاهدة فقيهة يمكن القارئ الوقوف على ذوقها الأدبي وتلذذها العقلي من قولها : " لقد طلبت العبادة في كل شئ ، فما أصبت لنفسي شيئا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم " . ويصفها النووي بقوله : اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم والجلالة " ، وعاشت هذه السيدة العربية في أيام معاوية ، وكانت تقيم ستة أشهر ببيت المقدس وستة أشهر بدمشق .

٤- علية بنت المهدي : قيل عنها إنها " كانت من أحسن الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة .. وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة ، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب . فلا تلتذ بشئ غير قول الشعر " .

٥- نصار بنت أبي حيان : قال المقري : إن هذه السيدة حجت وسمعت قراءة العلم على بعض الشيوخ .. وحضرت على الدمياطي وسمعت على جماعة ، وأجازها من المغرب أبو جعفر .. وحفظت مقدمته في النحو ، ولما توفيت وضع والدها فيها كتابا سماه (النضار في المسلاة عن نضار) . وكان والدها يثني عليها كثيرا ، وكانت تكتب تقرأ ، ذكر الصفدي قال لي والدها أنها كانت تعرب جيدا وأظنه قال لي أنها تنظم الشعر ، وكان يقول دائما ليت أخاها حيان كان مثلها .

٦- فضل المدينة : كانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد ، نشأت وتلمت ببغداد .

٧- قمر : جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية ، كانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان ، وجمعت أدبا وظرفا ورواي وحفظا مع فهم بارع وجمال رائع . وكانت تقل الشعر .

٨- ولادة المروانية : وصلت هذه السيدة براعة ولباقة إلى حد مداعبة الوزير ابن زيدون بأبيات من الشعر .

٩- حسانة التميمية : تأدبت وتعلمت الشعر .. ولما وقف الحاكم على شعرها استحسنه وأمر بإجراء مرتب لها .

البنات والمكتب

لقد جئنا بأسماء بعض النساء العربيات اللواتي بلغن درجة من العلم والأدب ، وبقى أن نقول كلمة في الوسائط التي وجدت لتعليمهن ، أما هذه فكانت التعليم الخصوصي على مدرسين خصوصين ، وفي مكاتب خصوصية ، ومما يذكر في كتاب الأغاني تردد البنات إلى المكتب في القرن الثاني للهجرة ، وإليك ما رواه الأصفهاني :

" كان بالكوفة رجل يقال له على بن آدم وكان يهوى جارية .. وحدثني بعض أهل الكوفة أنه علقها وهي صبية تختلف إلى الكتاب فكان يجئ إلى ذلك المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها وقيل أيضا عنه مر بمكتب في بني عبس بالكوفة فرأى فيه جاريه وقيل إن خليلا المعلم الملقب بخليلين كان يؤدب الصبيان ويعلم الجواري الغناء في موضع واحد وذكر الحاجظ أن الوليد ابن عبدالملك مر بمعلم صبيان فرأى جارية تتعلم القرآن فمن هذا يظهر أن الفتيات ذهبن للتعليم في المكتب ، وفي بعض الأحيان تعلمن من الفتيان كما هو معروف اليوم في بعض الأماكن ، فإننا رأينا في القاهرة أحد المكاتب محتويا على الصبيان والبنات معا .

النساء والتدريس

إن هذا القرن لهو عصر النساء ، إذ نراهن يزاحمن الرجال على الأشغال والمهن مثل التعليم والطب والمحاماة ومن الغريب أن بعض

عرب اليوم يستنكرون مخالطة النساء للرجال ولا يحبذون اتخاذهن أعمالهم ، ويظهر مما سيأتي أن عددا من النساء العربيات احترفن التدريس فعلمن الرجال أجزن لهم ، كما فعلن ببنات جنسهن وإليك أسماء بعضهن :

١- أم المؤيد زينب : يقول ابن خلكان أنها " كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجاز ، وأجاز لها الحافظ أبو الحسن ، ولنا منها إجازة " .

٢- فخر النساء شهدة : كانت من العلماء وكتبت الخط الجيد وسمع عليها خلق كثير ، وكان لها السماع العالي ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر .. واشتهر ذكرها وبعد صيتها .

٣- السيدة نفيسة ابنة أبي محمد: كانت من النساء الصالحات التقيات، وقد روي أن الإمام الشافعي لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث .

ويعترف أبو حيان بأنه كان بين شيوخه ثلاث نساءهن :

٤- مؤنسة بنت الملك العادل

٥- شامية بنت الحافظ

٦- زينب بنت عبداللطيف

٧- شهدة الكاتبة بنت الأبرى : قرأ عليها عبدالرحمن بن دواد صحيح البخاري

٨- العروضية : سكنت في بلنسية وأخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته في ذلك ، وبرعت في العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالي وتشرحهما ، قال أبو داود سليمان " قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض " .

٩- مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري : سكنت في أشبيلية وقيل أنها كانت أديبة شاعرة مشهورة .. وكانت تعلم النساء الأدب .

هذه بعض الأمثلة التي ربما أظهرت ممارسة النساء العربيات لفن التعليم وكفايتهن للمهنة ، هذا ولم يكن عدد المدرسات مقصورا على ما ذكرناه ، فقد روى ياقوت أن شيوخ علي بن الحسن بن عساكر بلغ عددهم ألفا وثلاثمائة ، ومن النساء بضع وثمانون .

وصفوة القول إن التربية عند العرب لم تنحصر في الرجال بل شملت النساء أيضا ، حتى أنه اشتهر عدد من العربيات بالذكاء وتوقد القريحة مثل الخنساد وعائشة وأسماء وغيرهن ، ولما ظهر الإسلام وأخذت القراءة والكتابة في الانتشار تعلمها بعض النساء كما فعل الرجال ، ولما فتحت المكاتب والمدارس وانتشر العلم ، وكان للنساء نصيب من ذلك ، إذا جاء ذكر للبنات في المكاتب ، هذا وقد جئنا بالأدلة على تعاطي النساء الأعمال الأدبية مثل الكتابة والإنشاء وراوية

الحديث وقول الشعر والتعليم . ولو لم يفتخر العرب بذكاء نسائهم في العراق والشام ومصر والأندلس ، لما ذكروا أنهن أجزن لهم وألقين عليهم الدروس . ولا نعني بما جئنا به عن تعليم النساء أن العلم كان منتشرا بينهن كما هو اليوم منتشر بين نساء الغرب ، ولا أن عدد المتعلمات كان يضاهي عدد المتعلمين عند العرب ، غير أن ما وقفنا عليه يجيز لنا القول إنه كان لنساء العرب وسائط لتلقي العلم . ومما هو جدير بالذكر أن عددا كبيرا منهن انتهزن الفرصة وانتفعن من تلك الوسائط ، وقد لا نخطئ إذا أسرفنا بالزعم وقلنا إنه إذا قابلنا نساء العرب بنساء الإفرنج في القرون الوسطى ، وجدنا حالة العربيات أرقى من حال أخواتهن الإفرنجيات ، ومن أظرف ما وجدناه عن النساء والأدب ما قاله صاحب الأغاني جزلة يجتمع الرجال عندها لإنشاء الشعر والمحادثة " . ومما يذكر عن جوار اشتراهن هشام بن عبد الملك أنه لم استنطقهن " رأى فصاحة وأدبا فاستقرأهن القرآن فقرأنه ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت " . والأستاذ المستشرق برون (E.G.BRWNE) الذي كان في جامعة كامبردج يروي قصة عن إحدى جواري هارون الرشيد ربما أظهرت حالة النساء من حيث التعليم ، وهي أنه قدم لهارون الرشيد جارية ثمنها عشرة آلاف دينار ، فدفع الخليفة الثمن المطلوب بشرط أن تؤدي الجارية امتحانا في بعض العلوم ، فامتحنت في الفقه والتفسير والطب والفلك والعلوم اللغوية والشطرنج ، ولم تكتف الجارية بالإجابة على الأسئلة بل طرحت هي الأسئلة على ممتحنيها ، فعجزوا عن الإجابة

، ومهما كان في هذه الرواية من المبالغة ، فلا شك أن الجواري حصلن على الوسائط للتعليم والوقوف على شئ من الأدب العربي .

وعلى كل حال فمما لا ريب فيه أن النهضة العربية الحاضرة لن تنضج ولن تثمر ولن تصل إلى أوج مجدها ، إن لم يكن للعربيات النصيب الأوفر في مؤازرتها ونشرها ، فكما أن العرب الأقدمين فتحوا المجال لنسائهم كي يساعدنهم في حركتهم الأدبية ، فلا شك أن عرب اليوم مضطرون إلى أن يفتحوا لهن المجال في هذا العصر الذي لا يمكن أن تقوم لهم فيه قائمة بلا مجهود المرأة وسعيها وقريحتها وعطفها .

الفصل الخامس

برامج الدروس

روى أن عمر بن الخطاب قال : " علموا أولادكم العوم والرماية فليثبوا على الخيل وثبا ، ورووهم ما يجمل من الشعر " ، وأما ما أراد الحجاج أن يعلم ولده فهو الآتي ذكره : " قال الحجاج لمعلم ولده : علم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنه " . وبهذه المناسبة لا يسعنا إلا الإعجاب بصواب رأي الحجاج في ضرورة تعليم السباحة للغلام إذا تذكرنا حادثة صقر قريش ، فإنه لولا إتقانه السباحة لهلك على أيدي العباسيين ، ولما قام لبني أمية مملكة عظيمة في بلاد الأندلس .

قال ابن التوأم " علم ابنك الحساب قبل الكتاب ، فإن الحساب أكسب من الكتاب ، ومؤونة تعلمه أيسر ، ووجوه منافعه أكثر .. ومن تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء ، أن يعلمه الكتاب والحساب والسباحة " .

وصى عتبة بن أبي سفيان عبدالصمد مؤدب ولده بأن يعلمه كتاب الله ويرويه من الشعر أعفه ومن الحديث أشرفه ، وقيل " علم الملوك النسب والخبر وجمل الفقه ، وعلم التجار الحساب والكتاب ، وعلم

أصحاب الحرب درس كتب المغازي وكتب السير " . وهاك وصية هشام بن عبد الملك إلى سليمان الكلبي لما اتخذه مؤدبا : " إن أول ما آمرك به أن تأخذه بكتاب الله وتقرئه في كل يوم عشرا يحفظه حفظ رجل يريد التكسب به . روه من الشعر أحسنه . ثم تخلل به في أحياء العرب ، فخذ من صالح شعرهم هجاء ومديحا ، بصره طرفا من الحلال والحرام والخطب والمغازي . ثم أجلسه كل يوم للناس . ليتذكر " .

يستنتج مما مر أن البرنامج الذي حبذه العرب أولا كان برنامجا عمليا ، مثل السباحة والرماية وركوب الخيل والكتاب والحساب وأخبار الغزوات وحفظ الأنساب والمحادثة وقوانين الضيافة وغيرها ، ومما أراد العرب تعليمه للأولاد الشعر ، وهذا لولوعهم به وترنمهم بموسيقاه في أثناء الغزو والحرب ، ولما ظهر القرآن اهتموا به اهتماما شديدا ، ومما لا يختلف فيه اثنان أن منهج الدروس بعد ظهور الإسلام أسس على القرآن إذ تعلم الناس القراءة كي يقرأوا كتاب الله ، واهتم القوم بالحساب لما اقتضاه الدين الإسلامي من حساب الزكاة وتقويم أوقات الصوم والمواسم الدينية ، وجاء علم النحو لوقاية ألسنة الناس من اللحن ، وقس عليه علوم التفسير والحديث والفقه وغيرها . قال ابن خلدون في هذا الصدد : " وصار القرآن أصل التعليم الذي نبني عليه ما يحصل من الملكات " . ويقول زيذان " وجملة القوم إن ما اشتغل به المسلمون في صدر الإسلام من العلوم مرجعه إلى القرآن ، فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية فضلا عن الدينية " .

يستنتج أن الغلام العربي ذهب إلى الكتاب في السابعة من عمره . قال ياقوت عن عمر بن أحمد المولود سنة ٥٨٨ هجرية " لما بلغت سبعة أعوام حصلت إلى المكتب فأقعدت بين يدي المعلم " . ولا ريب في أن أهم موضوع في منهج الدراسة في الكتاب كان القرآن . فمنه تعلم الولد القراءة والدين وضرب بسهم كبير من اللغة العربية وأدبها ، فلم يكن منهج الكتاتيب مثل منهج بساتين الأطفال عندنا اليوم ، بل تعلم الأولاد القرآن عدة ساعات في النهار ، وقد قال الغزالي أن دروس الكتاب كانت أحاديث الأخبار وحكايات الأبرار والشعر ، ومما يروي عن ابن سينا في تعليم الأولاد ما نصه : " فإذا اشتدت مفاصل الصبى واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعي سمعه ، أخذ في تعلم القرآن ، وصور له حروف الهجاء ، ولقن معاليم الدين ، وينبغي أن يروي الصبي الرجز ثم القصيدة " . هذا ولم يكن الفرق كبيرا بين برنامج الكتاب فيما مضى برنامج كتاب يومنا الحاضر ، ومما لم نجد له ذكرا في برنامج الكتاتيب ، درس الحساب فضلا عن الجغرافية والتاريخ ، إذ لم تعلم هذه الدروس على حسب ما نعرفها نحن .

وقد اختلفت المدة التي احتاج إليها الولد في حفظ القرآن وإكمال الدروس الابتدائية ، فقيل عن ابن سينا أنه " لما بلغ عشر سنين من عمره كان قد أتقن علم القرآن العزيز " . وقال ابن العربي " حذقت القرآن ابن تسع سنين " . وقال عمر بن أحمد " ختمت القرآن ولي تسع سنين " .

وإذا تذكرنا أن عمر بن أحمد ذهب إلى المكتب وهو في السابعة من عمره ، ظهر لنا أنه قد أكمل القرآن في سنتين ، وخير ما عثرنا عليه من هذا القبيل أن الطبري كان قد حفظ القرآن وله سبع سنين فقط ، وروى الغزالي أن سهل بن عبدالله القسري حفظ القرآن وهو ابن ست أو سبع سنين . وخلاصة القول أن الولد ذهب إلى المكتب حوالي السابعة من عمره ، وقضى ما يقرب من ثلاث سنوات أو أربع في استظهار القرآن والوقوف على أصول الدين وتعلم بعض مبادئ اللغة والشعر ، ولابد أنه تعلم الخط أيضا . ثم عند إكماله هذا المنهج الابتدائي ، انتقل إلى " المدارس " أو ما يسمى اليوم بالدراسة الثانوية .

برنامج " المدارس " أو البرنامج الثانوي

قلنا إن المدرسة اصطبغت بصبغة دينية ، ولهذا كان برنامجها دينيا شرعيا . لغويا ، لا علميا يحتوي على الرياضيات والفلك والطبيعيات والكيمياء ، وربما كانت " المدرسة " العربية أم المدرس الثانوية الأوروبية المسماة بالكليات ، إذ يوجد شئ من الشبه بين برنامج " المدرسة " وبرنامج الجمناز الألماني أو الليسيه الفرنسي في كثرة العلمو اللغوية وقلة العلوم الطبيعية . ويجب أن لا نستغرب هذا الأمر لأن القرون الوسطى لم تكن تعرف العلوم الطبيعية ، كما نعرفها نحن اليوم ، ولهذا كان برنامج المدارس الأوروبية محتويا على العلوم السبعة المعروفة ، وأما برنامج المدارس العربية فسنوضحه بالاستشهاد بالمنهج الذي درسه ابن سينا ، وقد قيل عنه أنه لما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن العلوم الآتية :

علم القرآن

الأدب

حفظ أشياء من أصول الدين

حساب الهند

الجبر والمقابلة

كتاب إيساغوجي

المنطق

إقليدس (الهندسة)

وعلى سبيل المقابلة نأتي على ذكر الدروس التي تلقاها ابن العربي قال :

" حذقت القرآن ابن تسع سنين

ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية والحساب

بلغت ست عشرة وقد قرأت من الأحرف نحوا من عشرة بما يتبعها من إظهار وإدغام

ثم رحل بي أبي إلى المشرق " .

وزيادة على البرنامجين اللذين مر ذكرهما نأتي على ذكر دروس لسان الدين بن الخطيب :

" قرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبدالله تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا

ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي لازم قراءة العربية والفقه التفسير

تأدب بالرئيس أبي الحسن

أخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل " .

وأخيرا نثبت منهجا آخر يذكره ياقوت :

القرآن العروض

التفسير القوافي

الفقه الحساب

الفرائض الهندسة

الشروط الشعر

النحو الحديث

اللغة الأخبار

وقد دخل على برامج المدارس عند العرب والإفرنج علوم أخرى مثل علم الكلام وعلم الجدل علم المناظرة ، وكان الغرض من إدخال هذه العلوم في المدارس الدفاع عن الدين ورجاله بالحجة والبرهان والعلم، وإليك ما قاله ابن خلدون في علم الكلام "إنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وما قال الغزالي فيه " فمقصوده حماية المعتقدات " .

تلك كانت الدروس التي تلقاها معظم المتهذبين والأدباء من العرب ، ولعل إتمام دراسة هذا المنهج استغرق من وقتها ما بين قبيل سن البلوغ وعصر الرجولية أي في الثانية عشرة إلى ما حول العشرين ، فيكون الطالب بعد إكمال هذا البرنامج قد حفظ القرآن وعرف أمور دينه ، وأتقن لغته فتمكن من استعماله كلاما وكتابة ، وحفظ شيئا من الشعر ، وتفقه ودرس المنطق والرياضيات ، وفي الجملة إن خريج (المدارس) العربية كان من طبقة حامل البكالوريا في عصرنا هذا . وأما الأعمال التي قام بها خريجو المدارس ، فكانت القيام بوظائف التعليم ، وبأعمال المحاكم الشرعية وبأشغال دواوين الحكومة على أنواعها ، ومما يدل على هذا ما روي عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي إذ قال " خرجت إلى خرسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضياه أو مفتيها أو خطيبها تلميذي " .

يقول الكونت دي سلاين (De Sian)، وهو مترجم كتاب ابن خلكان إلى اللغة الإفرنسية، إن علوم الرياضيات الطب والفلك ما وراء الطبيعة لم تدرس في المدارس بل قام بأمر تدريسها على الأكثر مدرسون خصوصيون. ويشاركه في هذا الرأي المستشرق مكدونلد (Macdonaid) وفان برشم (Van Berchem) ويرى هؤلاء العلماء أن العلوم الطبيعية علمت في بيت الحكمة ودار العلم .

وأما المدارس التي قامت على أثرها ، فعلمت العلوم اللسانية والشرعية كما مر بنا ، أما عدم تدريس العلوم الطبيعية في "المدارس"، وعدم جعلها دروسا رسمية في البرامج المألوفة ، فربما كان سببه الخوف من هذه العلوم، إذ لا يخفى أن الحالة الفكرية تطورت في الدين الإسلامي كما تطورت في بقية الأديان، ومن المعروف أنه طرأ على التفكير الإسلامي انقلاب مهم في عصر المأمون ، وإن حرية الفكر أثرت دون ريب في برامج التعليم ، غير أن ذلك التأثير لم يرق للأكثرية وكانت النتيجة أن عاد، بعد موت المأمون الفكرة على الفلسفة والتجدد، واستعاض القوم بالمدارس عن المعاهد العلمية، وقد حدث ذلك الانقلاب الفكري نفسه في الأندلس وقاومه الرجعيون حتى قام الفقهاء والشيوخ وقضوا على الحرية الفكرية وقد قاسى هنالك الفيلسوف ابن رشد إذ قام عليه الناس واضطهدوه وسجنوه لما أظهر من مخالفة الجمهور في آرائه القديمة ، وبعد موت ابن رشد جمدت الحركة الفكرية

عند العرب، وظلت جامدة إلى أن عادت إليها الحياة في القرن التاسع عشر .

قلنا إن رجال الدين أو جسوا خيفة من بعض العلوم ، لأنها ربما شوشت أفكار الناس وحملتهم على الريب والحيرة في بعض المعتقدات الدينية ، ولذلك سميت هذه العلوم " بالعلوم المذمومة " .

وقد سمح الغزالي بتعليم الهندسة والحساب " إلا لمن يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ، فإن أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما لا لعينهما كما يصان الصبي على شاطئ النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر ، وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه ، مع أن القوي لا يندب إلى مخالطتهم " . قال الغزالي عن الطبيعيات أن بعضها " مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم . وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها " . ومما يذكره المقري في هذا الصدد ، إن العامة لم تحبذ علوما مثل الفلسفة والتنجيم ، وإليك كلامه : " وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهرون بها خوف العامة . فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان " .

ولم يستحسن بعضهم الاشتغال بعلم الكيمياء ، إذ يقول العبدري : "وأما الاشتغال بتحصيل علم الكيمياء فهو من الباطل " . ويظهر أن اضطهاد المشتغلين بالعلوم المذمومة امتد من الأندلس إلى العراق وإليك قصة يرويها ابن القفطي عن عبدالسلام ربما بينت ما يريد بيانه : قال " فثلبه أحدهم بأنه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن ، فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه ، فوجد فيها الكثير من علوم القوم ، وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وأن تحرق بحضور الجمع ، ففعل ذلك وأحضر لها عبيد الله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية ، وجعل له منبر صعد عليه ، وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم . وذكر الركن عبدالسلام هذا بشر ، وكان يخرج الكتب التي له كتابا كتابا فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ، ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار ، وألقى عبدالسلام في السجن" .

على أنه لا يمكننا ، والحالة هذه ، أن نأخذ على العرب في القرون الوسطى اضطهادهم الفلسفة ومنعهم حرية الفكر ، فها هم الإفرنج لا يزالون يضطهدون مفكريهم ، فلا يغيبن عن الذهن أن أهل مدينة جنيف أحرقوا قبيل الثورة الفرنسية كتاب " أميل " لجان جاك روسو وطردوا مؤلفه من مدينتهم ، وهذه أميركا تسن القوانين اليوم لتمنع تعليم مذهب النشوء في بعض مدارسها الأميرية ، ومهما يكن من أمر ، فلابد أن نعطف على العامة ورجال الدين لخوفهم على معتقداتهم من هذه الدروس العلمية ، لأن العلم يقضي على بعض خرافات الأديان – تلك الخرافات

التي يبني عليها بعضهم كل دينهم ولإثبات قولنا ننقل قصة من ياقوت عن علي بن يحيى المنجم الذي توفى سنة ٢٧٥ هجرية في آخر أيام المعتمد، قال: " كان بكركر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال على بن يحيى فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شئ من النجوم ، فوضعت له الخزانة فمضى ورآها فهاله أمرها فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علوم النجوم وأعرق فيه حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين وبالإسلام أيضا " .

إذا هذه هي الأسباب التي حالت دون وضع الدروس العلمية والبرنامج العلمي في "المدارس". غير أنه لا يجوز لزاعم أن يزعم أن هذه الدروس كانت مفقودة عند العرب لمجرد عدم تلقينها في " المدارس"، لأن الواقع كان غير ذلك، إذ درس الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والكيمياء على أيدي أساتذة خصوصيين – أي أنهم علموا هذه الدروس على مسئوليتهم ، لا بطريق رسمية ولا على نفقة الحكومة أو الأوقاف . ومن المحتمل أنهم لقنوا تلامذتهم هذه الدروس في المارستانات أو في بيوتهم الخاصة .

وجديد بالذكر أن الأستاذ كان أهم من المدرسة ، إذا جاء الطلبة من كل الآفاق إلى الشيخ الفلاني ، ولم يأتوا إلى المدرسة الفلانية ولهذا وردت اصطلاحات مثل : درس على الشيخ الفلاني ، وسمع على الأستاذ الفلاني ، وقرأ على الإمام الفلاني ، وتفقه على فلان ، وأخذ عن فلان وأجيز من فلان الخ .. ونعيد أن هذا يدل على أن اعتبارهم للمدرس كان يفوق اعتبارهم للمدرسة ، وإن الذي قام بعبء الدروس كان الأستاذ لا المدرسة .

إذا كان البرنامج العلمي برنامجا خصوصيا لا رسميا ، فقد درس هذه الدروس قوم من أهل العلم ، وكفانا دليلا على ذلك كتاب ابن أبي أصيبعة الذي يعد عددا كبيرا من الأطباء ، وكتاب ابن القفطي المسمى بتاريخ الحكماء ، وهذان الكتابان يذكران ممن درس الحكمة والعلوم الطبيعية الشئ الكثير .

تلك كانت البرامج المختلفة عند العرب وقد قسمناها إلى :

برنامج الكتاتيب وبرنامج "المدارس" والبرنامج العلمي. وفي الختام نقدم لائحة في الدروس التي درسها العرب سواء كانت رسمية أم غير رسمية ، مباحة أو مذمومة وهي :

العلوم الشرعية : الفقة والتفسير والحديث والفرائض .

العلوم الأدبية : اللغة والنحو والبيان والعروض والإنشاء وعلم القراءات والأخبار .

العلوم الرياضية : الهندسة والفلك والحساب والجبر والمقابلة والموسيقى والسياسة والأخلاق .

العلوم العقلية : المنطق وعلم الكلام وعلم الجدل والأصول وعلم ما وراء الطبيعة والطب والكيمياء .

علوم أخرى : المساحة والزراعة والسحر والطلسمات والتنجيم تعبير الرؤيا .

الأجازة

أما الآن وقد أكملنا درس البرامج التي شاعت في المدارس العربية، فمن الضروري الالتفات إلى الإجازات أو ما يسمى اليوم بالشهادات أو الدبلومات التي تعطي للطلبة عند انتهائهم من دروسهم الرسمية ، وقد اختلفت الإجازة العربية عن الدبلومات الحديثة في أن الأولى أعطيت باسم المدرس، والثانية تقدم باسم المدرسة، إذا أجاز الأستاذ تلميذه، وعد الطالب طالب الشيخ الفلاني لا طالب المعهد الفلاني ، ويقتفي عصرنا الحاضر آثار العرب في إلزام الأطباء والصيادلة والمعلمين اجتياز الامتحان وإبراز الإجازة قبل ممارسة الطب والصيدلة أو التعليم ، ومما يدل على هذا قول ابن أبي أصيبعة في أنه طلب الامتحان لممارسة

الطب والحصول على الإجازة في بغداد ٨٦٠ طبيبا ، وكان ذلك في زمن المقتدر بالله ، وأما رئيس الامتحانات فكان سنان بن ثابت . وكما حصل الأطباء على إجازة تجيز لهم ممارسة الطب ، حصل المدرسون على إجازات تخولهم حق التعليم ، وجدير بالذكر إن الإجازة لم تجز للمدرس تدريس كل العلوم ، بل أجازت له تعليم ذلك الفرع الذي أتقنه على أستاذه الذي أجاز له ، فأجاز أستاذ المنطق لطلبته مثلا تعليم المنطق لا غير ، وكما أن الشهادة العصرية يحكم على قيمتها من شهرة وصيت الجامعة التي أعطتها للطالب ، هكذا حكم على الإجازة العربية من شهرة وصيت الجامعة التي أعطتها للطالب ، هكذا حكم على الإجازة العربية من شهرة الأستاذ الموقع عليها . هذا وكثيرا ما وضع الأساتذة خطوطهم على الكتب التي ختمها عليهم تلامذتهم ، وذلك إشعارا بموافقتهم على أن يعلم أولئك الطلبة تلك الكتب ومما يذكره ابن خلكان في ترجمة أبي الحسن الحوفي " واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، ورأيت خطه على كثير من كتب الأب قد قرئت عليه ، وكتب لأربابها بالقراءة كما جرت به عادة المشايخ " . ولإتمم الفائدة نأتي بصورتي إجازتين هما من عشرات من الإجازات المحفوظة اليوم في المتاحف ودور الكتب .

إجازة

بسم الله الرحمن الرحيم : قد أجزت للشيخ أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن نصر أدام الله عزه أن يروي عني مصنفاتي وكتبي مما صححه

وضبطه على أبو أحمد عبدالسلام بن الحسين البصري أيد الله عزه . عنده منها كتابي المرسوم بالخصائص وحجمه ألف ورقة وكتاب كذا وكذا..

فليرو أدام الله عزه ذلك عني أجمع إذا صح عنده وأنس بتثقيفه وتسديده وما صح عنده أيده الله من جميع رواياتي مما سمعته من شيوخي رحمهم الله وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التي أتيتها وأقمت بها مباركا له فيها منفوعا به بإذن الله ، كتبه عثمان بن جنى بيده حامدا لله سبحانه في آخر جمادي الآخرة من سنة ٣٨٤ .

إجازة الصلاح الصفدي من أبي حيان

قد أجزت لك أيدك الله تعالى جميع ما رويته عن أشياخي بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك بقراءة أو سماع أو مناولة وإجازة بمشافهة وكتابة ووجادة وجميع ما أجيز لي أن أرويه بالشام والعراق وغير ذلك وجميع ما صنفه واختصرته وجمعته وأنشأته نظما ونثرا وجميع ما سألت في هذا الاستدعاء فمن مروياتي الكتاب العزيز بقراءة السبعة على جميع من أعلاهم الشيخ المسند المعمر فخر الدين أبو الطاهر اسماعيل والكتب الستة الطيالسي الخ .. قاله وكتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان .

الفصل السادس

أساليب التدريس وآدابه

التعليم كمهنة

مما لا ريب فيه أن التعليم تطور عند العرب فبعد أن كان يتطفل عليه كل من عرف شيئا من القراءة والكتابة ، أصبح صناعة اختصت بها طبقة من الناس أي أن التعليم صار فنا لا يقدم عليه إلا أهله ، والأدلة على ذلك كثيرة منها ما يأتي :

لابن خلدون فصل في مقدمته عنوانه " في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع " ، ويذكر في هذا الفصل أن تعليم العلم صناعة اختلفت فيها الأساليب والاصطلاحات " فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها " . ثم قال " واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها في صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم " . وكتب التربية الكثيرة عند العرب تدل أيضا على أنهم نظروا إلى التعليم كمهنة أو فن يحتاج إلى تنقيب ومزاولة واختبار .

أساليب التدريس

لقد مر بنا أن الاصطلاحات والأساليب اختلفت على حسب الأئمة والمدرسين، فلنبحث الآن في أهم هذه الأساليب التي راجت عند العرب وهي:

(أ) الإلقاء أو المحاضرة أو الشرح

(ب) الإملاء أو التلقين

(ج) المناقشة أو المذاكرة أو المناظرة

وغير خاف أن الطرق المتنوعة ترجع إلى أسلوبين أساسين، وهما التعليم والتعلم ، فالشرح والإلقاء والإملاء والمحاضرة كلها وسائط تمكن المعلم من إعطاء معلوماته وإيصال أفكاره للتلميذ ، فهي إذا طعام مهضوم يوضع في فم الطالب كأنه طفل ، وأما الأسلوب الثاني – أسلوب المناظرة والمناقشة والمطارحة والسؤال والجواب والأخذ والرد – فهو واسطة تمكن الطالب من التعليم والتفكير والاستنتاج والنمو ، ويظهر أن العربي استعملوا كلتا الطريقتين في التعليم ، فمنهم من استعمل الاثنين ومنهم من اكتفى بالأول .

ومن الأمثلة على أسلوب الإلقاء أو المحاضرة ما قاله ابن خلكان عن إمام الحرمين إذ "كان يذكر دروسا يقع كل واحد منها في عدة أوراق ولا يتلعثم في كلمة منها " . ومما ذكره ابن جبير من القبيل عند زيارته

بغداد ، إن الإمام رضا الدين القزويني " اندفع فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين العلوم " . ولا يخفى أن هذا النوع من التعليم هو من قبيل إلقاء المحاضرات وهو المتبع في معظم جامعات الغرب في وقتنا الحاضر ، ومما يزيد الأمور وضوحا ما دونه ابن خلدون بشأن هذا الاسلوب من التعليم تحت عنوان الآتي : " في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته " .

وخلاصة ذلك :

١- أن يكون الشرح أولا على سبيل الإجمال يراعي فيه قوة العقل واستعداد فهم الطالب .

٢- استيفاء الشرح والبيان كي يخرج عن الجمال .

٣- التفصيل الدقيق الذي لا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح مقفله . يرينا ابن خلدون أنه من الضروري أن يكرر الدرس ثلاثا ، وأنه ينبغي أن تفوق كل مرة ما قبلها في التفصيل والتدقيق .

ذاك هو الأسلوب الشرحي أو الخطابي ، وأما طريقة التعليم بالإملاء أو التلقين فلا تختلف عنه في المبدأ . وقد اضطر مدرسو القرون الوسطى إلى استعمال أسلوب التلقين لعدم توافر الكتب المدرسية والمعاجم ودوائر المعارف وغيره لديهم . وربما تعذر علينا أن نتصور صعوبات التدريس قبل انتشار فن الطباعة ووجود وسائل التعليم الحديثة

مثل الفهارس والخرائط ووسائل الإيضاح . وبما أنه لم يكن من الكتاب إلا نسخة واحدة ، وكانت هذه بيد المعلم كذلك اضطر هذا أن يملي على طلبته محتويات تلك النسخة ، وكان هذا الإملاء أو التلقين من وظائف المعيد الذي كان يعيد ما يقوله المدرس على الطلبة ، وقد بينا ذلك بالاستشهاد بقول ابن بطوطة عند زيارته للمدرسة المستنصرية في بغداد إذ قال : " ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما ، وعلى يمينه ويسار معيدان يعيدان كل ما يمليه " . لإسلوب الإملاء ذكر في كتب ياقوت نأخذ منها بعض ما يثبت مثالنا . قال عن أبي أحمد في كتب ياقوت نأخ منها بعض ما يثبت مقالنا . قال عن أبي أحمد : " كنا في مجلس نفطويه وهو يملي " . وأيضا عن غيره : " جئته يوما في مجلس الأدب والناس عنده وهو يملي " . وأيضا : " عقد له مجلس الإملاء في الجامع " . وأخيرا يقول على بن عبدالله الناشئ " كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها والناس يكتبون مني . وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم " .

شرح المدرس العربي وأملى ، غير أنه لم يقف عند هذا الحد ، بل فتح المجال للمناقشة والمناظرة ، ومن السهل إثبات هذا الزعم ، إذ تكثر الأقوال عن مذاكرة الأساتذة طلبتهم ، فإن الشيخ برهان الدين الزرنوجي صاحب كتاب " تعلى المتعلم " المشهور يذكر أنه " لابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة ، فينبغي أن يكون كل منهما بالإنصاف والتأني والتأمل ويتحرز من الشغب ، فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة ، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب " . ومن

رأي الزرنوجي أيضا أن " فائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار .. وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر . وورد عن أبي حنيفة أنه تفقه بكثرة المطارحة والمذاكرة في دكانة حين كان بزازا " .

ومن حسنات هذا الأسلوب أنه فسح المجال للتلامذة ليناقشوا أساتذتهم ويعارضون ويخالفوهم في آرائهم ، ويشهد بذلك المؤرخ المقري نقلا عن أبي عبدالله الراعي إذ يقول : " كان شيخنا العلامة أبو إسحق إبراهيم قدس الله روحه يفسح لصاحب البحث مجالا رحبا ويوسع المراجع له قبولا ورحبا بل يطالب بذلك ويقتضيه ويختار طريق التعليم به ويرتضيه ". ثم قال أيضا " ومخالفة التلميذ الشيخ ، في بعض المسائل، إذا كان لها وجه وعليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ ، ولكن مع ملازمة التوقير الدائم والإجلال الملائم ، فقد خالف ابن عبال عمر وعليا وزيد بن ثابت وكان أخذ عنهم ، وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة وإنما أخذوا العلم عنهم ، وخالف مالك كثيرا من أشياخه وخالف الشافعي وابن القاسم وأشعب مالكا في كثيرا من المسائل ، وكان مالك أكبر أساتيذ الشافعي وكان كل من أخذ العلم يخالفه بعض تلامذته في عدة مسائل ، ولم يزل ذلك دأب التلاميذ مع الأساتيذ إلى زماننا هذا . قال وشاهدنا ذلك في أشياخنا مع أشياخهم " .

فليس عجيبا إذا أن يبلغ حب البرهان بهذا الإمام (أبي حنيفة) حدا يقول عنده " حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي " .

ولكنه عجيب أن يقول بعض أتباعه بأن باب الاجتهاد قد أغلق ، بينما الإمام نفسه يحرم الثقة المطلقة والانقياد الأعمى .

الحفظ

يتم الغرب الشرق بأن الأسلوب في نظامه التعليمي يرتكز على الذاكرة والحفظ ، لا التفكير والابتكار ، ويؤيدون قولهم بالاستظهار الكثير عند الصينيين وحفظ القرآن عند العرب ، ولا يسعنا أن ننكر أن كثيرا من تعليم العرب كان استظهارا ، ولا ريب في أن الذاكرة كان لها حظ وافر عندهم ، فمن المعروف أن الولد ابتدأ في المكتب بحفظ القرآن والقصائد والحكم التي قلما فهم معناهم ، فالولد الذي يصرف سنتين أو ثلاثا أو أربعا في حفظ القرآن غيبا ، والطالب الذي يحفظ الألفيات من الشعر ، لابد أن يضعف ، وربما يميت القوة المفكرة العاقلة ، ويحيي القوى الحافظة ، وورد اصطلاحات مثل " تكرار " " وإعادة " و " مراجعة " في كتب العرب يدل على استعمال أسلوب الحفظ . ويقول الزرنوجي أنه " ينبغي لطالب العلم أن يعد ويقدر نفسه تقديرا في التكرار فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ ، وينبغي أن يكرر سبق الأمس خمس مرات وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات والسبق الذي قبله ثلاثا " . وعلى ذكر الحفظ والنسيان والذاكرة ، لا بأس من اطلاع القارئ على رأي الشيخ برهان الدين الزرنوجي فيما يورث الحفظ والنسيان . قال أن أقوى أسباب الحفظ هي :

١– الجد والمواظبة وتقليل الغذاء وصلاة الليل وقراءة القرآن .

٢– شرب العسل ، أكل الكندر مع السكر وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق .

٣– كل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ .

وأما ما يورث النسيان فهو :

١– المعاصي وكثيرة الذنوب والهموم والأحزان وكثرة الأشغال .

٢– أكل الكزبرة الرطبة والتفاح الحامض .

٣– النظر إلى المصلوب وقراءة لوح القبور والمرور بين قطار الجمال وإلقاء القمل الحي على الأرض على بقرة القطا .

ومما يروى عن قوة الذاكرة عند العرب ما قيل عن أبي العلاء في معجم الأدباء ، وهو : " قال تلميذ لأبي العلاء قمت وكلمته بلسان الأذربية شيئا كثيرا إلى أن سألت عن كل ما أردت ، فلما رجعت وقعدت بين يدي أبي العلاء قال لي : أي لسان هذا ؟

قلت هذا لسان أذربيجان ، فقال لي : ما عرفت اللسان ولا فهمته غير أني حفظت ما قلتما ، ثم أعاد على اللفظ بعينه من غير أن ينقص عنه أو يزيد عليه " .

والأبيات الآتية التي ذكرها القاضي خليل بن أحمد السجزي

تزيدنا إيضاحا عن أسلوب الحفظ عند العرب :

وإذا ما حفظت شيئا أعده ثم أكده غاية التأكيد

ثم علقه كي تعود إليه وإلى درسه على التأييد

فإذا ما أمنت منه فواتا فانتدب بعده بشئ جديد

مع تكرار ما تقدم منه واعتناء بشأن هذا المزيد

ويظهر أن بعضهم أفرط في الاعتماد على الذاكرة دون الفهم ، حتى قال أحدهم لابن إبراهيم النخصي : " إني أختم القرآن كل ثلاث ، قال : ليتك تختمه كل ثلاثين وتدري أي شئ تقرأ " .

وفي الختام نقول إنه – وإن استعمل بعض معلمي العرب وطلبتهم الأساليب العقيمة ، وحفظوا الدروس غيبا دون أن التفكير والفهم . وهاك ما يوصي به الحاج خليفة صاحب كشف الظنون .

" في أن الحفظ غير المكلة العلمية " .

" اعلم أن من كان عنايته بالحفظ أكثر من عنايته بتحصيل الملكة لا يحصل على طائل من ملكة التصرف في العلم ، ولذلك ترى من حصل الحفظ لا يحصل شيئا من الفن ، وتجد ملكته قاصرة في عمله إن فاوض أو ناظر ، ومن ظن أنه المقصود من الملكة العلمية فقد أخطأ ،

وإنما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدال إلى المدلولات ومن اللازم إلى الملزوم وبالعكس ، فإن انضم إليها ملكة الاستحضار فنعم المطلوب ، وهذا لا يتم بمجرد الحفظ " .

وفضلا عما قاله الزرنوجي في الحفظ ، ذكر أيضا أنه " ينبغي لطالب العلم أن يعرف الله تعالى بالدليل ، فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحا عندنا ، لكن يكون آثما بترك الاستدلال " . ويوصي ابن جماعة بأنه " يجب على المدارس أن لا يسرد الكلام سردا بل يتمهل ليفكر فيه هو وسامعه".

وخلاصة القول أن أسلوب التدريس كان أسلوب الشرح والإلقاء والإملاء ، غير أن الحفظ والاستظهار لم يكونا الطريقة الوحيدة في التعليم ، إذ حاول أحيانا بعض المدرسين إعمال الفكرة وفتح المجال للطلبة ليناقشوا ويذاكروا أساتذتهم .

التدريس

عند الإفرنج اصطلاح يسمونه " تكنيك " (technique) وهو الصناعة أو الطريقة الخصوصية أو التفنن في الأعمال سواء كان إلقاء درس أو عزفا على آلة موسيقية أو سباحة ، أي أنه أصبح عندهم أسلوب فني لعمل كل شئ ، أما فن إلقاء الدرس عند العرب فقد كان على الطريقة الآتية :

١- أن يبدأ المدرس بقوله : " لا حول ولا قوة إلا بالله " ثلاث مرات .

٢- أن يسند أمره إلى الله تعالى .

٣- أن يستجير بربه من عثرات اللسان ومن نزغات الشيطان ومن الخطأ والزلل .

٤- أن يتكلم بما قد تحصل عنده من العلم .

٥- أن يذكر ما ذكره العلماء ويوجه أقوالهم ويرد ما ذهبوا إليه إلى أصولهم ويكون في أثناء ذكره للعلماء يترضى عنهم ويترحم عليهم .

٦- أن يوجه مذهبه وينتصر له ، وذلك بشرط التحفظ على مذهب غير إمامه .

٧- ألا يرفع صوته كيلا يخرج عن أدب العلم .

٨- إذا أوردت عليه المسائل والاعتراضات ألا يجيب عن ذلك حتى يفرغ صاحب السؤال بكلامه .

٩- يجب على المعلم ألا ينزعج عند إيراد المسائل عليه والإكثار منها والإلحاد عليه بها . لأن الانزعاج ليس من شيم العلماء ولا من أخلاقهم .

١٠- ينبغي للمدرس إذا قعد لمجلس العلم أن يخلص نيته لله تعالى .

ها قد بحثنا في أمر الأسلوب ، أما الآن فلنبحث فيما يشبه الأسلوب ، ألا وهو الأدب المتفق عليه بين المعلم والمتعلم ، وبين الطلبة بعضهم مع بعض ، ولقد أسرف العرب في الكتابة في هذا الموضوع في كتب كثيرة منها " آداب العالم والمتعلم " ، " آداب الدارس والمدرس " ، " أحسن التطلاب فيما يلزم الشيخ والمريدين من الآداب " إلى غير ذلك من كتب ومقالات عن آداب الدرس .

وللإيضاح والمتعلم قال : " أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

١- تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ...

٢- أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن .

٣- ألا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق ..

٤- ينبغي أن يتقن أولا الطريق الحميدة والواحدة المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب واشبه .

٥- ألا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته .

٦- ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم .

٧- ألا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ..

٨- أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وإن ذلك يراد به شيئان أحدهما شرف الثمرة ، والثاني وثاقة الدليل وقوته ...

٩- أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ..

١٠- أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد .

بيان وظائف المرشد المعلم

١- الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه .

٢- أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد جزاء ولا شكرا ، بل يعلم لوجه الله تعالى .

٣- ألا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي .

٤- أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ .

٥- إن المكتفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلم التي وراءه كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير .

٦- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله .

٧- إن المتعلم القاصد ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه .

٨- أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله " .

وبين الغزالي أيضا طريقا لتأديب الصبيان وتحسين أخلاقهم ، وإليك أهم النقاط فيها :

١- أن تؤدب أخلاق الولد .

٢- أن يحفظ من قرناء السوء .

٣- ألا يعود التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية .

٤- أن لا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة .

٥- أن يعلم الولد آداب الأكل .

٦- أن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم .

٧- أن يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار .

٨- أن يكرم الولد ويحمد على ما جاء من الجميل ويتغافل عما جاء من القبيح .

٩- أن يمنع عن النوم نهارا فإنه يورث الكسل .

١١- يعود ألا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه .

١٢- يمنع من أن يفتخر على أقرانه بشئ مما يملكه والده .

١٣- إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد .

١٤- وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب .

أما روح بعض هذه الآداب التي يحبذها الغزالي في تأديب الولد فهي بلا شك روح يونانية ، فمن الممكن أن يكون قد نقلها عن الإغريف

، ومن أنعم النظر في الشرط الثالث وهو " منع الولد من التنعم ومن الزينة ومن أسباب الرفاهية " ، ومن درس أيضا الشرط العاشر وهو " تعويد الصبي الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، ومن تأمل في الشرط الثالث عشر وهو " وقت صراخ الولد عندما يضربه المعلم " نعم من تأمل في هذه الشروط ، رأى أن روحها روح إسبارطية وهي تربية ترمي إلى التخشن والتمرن على احتمال المشاق والصعوبات ، ورأينا أن هذه الروح ليست روح الغزالي نفسه ، ربما كانت منافية لطبعه وخلقه .

هذا قليل من كثير من آداب الدرس والتدريس عند العرب ، وكثيرا ما ينقل الكتاب عن بعضهم دون أن يذكروا المصدر المستقي منه ، ويلوح لنا أن عددا ليس بقليل من كتاب العرب الذين جاؤوا بعد الغزالي نقلوا آراءهم في آداب الدرس عنه ، وذلك لمشابهة بينة بين كلامهم وكلامه ، ولذا كان الواقف على آراء الغزالي في هذا الموضوع واقفا على معظم ما كتبه العرب ، ثم إن العبدري يأتي في كتاب " مدخل الشرع الشريف " بأشياء لم يذكرها الغزالي منها كيفية ذهاب المدرس من بيته إلى الجامع أو إلى المدرسة ، وله فصل في رجوع العالم من السوق إلى البيت ، وله بحث آخر في طريقة إسكات الطلبة وتحذير المعلم من ترك الدرس لحضور جناز مثلا ، ويقول " فلو حضر الجنازة وأبطل الدرس لأجلها تعين عليه أن يسقط من المعلوم ما يخص ذلك " . ويمقت العبدري أيضا استعمال المعلمين آلة اتخذوها لضرب الصبيان مثل " عصا اللوز اليابس والجريد المشرح والأسواط النوبية والفلقة وما أشبه " . ويقول أيضا : " إن من واجب المعلم أن يكون على أكمل الحالات

ومن ذلك أن يكون متزوجا " . وأخيرا يذكر هذا الكاتب أن يجوز للمعلم إعلان مكتبه لمجئ الصبيان إليه ، إذ يقول : " وينبغي له أن يتجنب ما يفعله بعض عوامل المؤدبين من أنه إذا قل عنده الصبيان أو فتح مكتبا وليس فيه أحد ، فإنه يكتب أوراقا ويعلقها على باب المكتب ليكثر مجئ الصبيان إليه ، وهذا لا يفعله إلا سفهاء الناس " . ثم إنه ينصح للمعلمين ألا يقبلوا الأطعمة من الصبيان .

الفصل السابع

فلسفة التربية عند العرب

" طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله "

لقد قلنا مرارا إن محمدا والإسلام والقرآن هم أساس العلم العربي والتربية العربية ، ولا شك أن البراءة العظمى للتربية عند العرب كانت القرآن ، وهو الذي أجبر الناس على تعلم القراءة فالكتابة فبقية العلوم . وقد ذكرنا أن النبي سمح لأسرى قريش أن يفتدوا أنفسهم بتعليم أولاد المسلمين القراءة والخط . وزد على ذلك أنه أراد أن يتعلم بعض نسائه القراءة والكتابة . وربما أن أعمال النبي وأقواله كانت المرجع في الدين ، حذا المسلمون حذوه من حيث التعليم . وأما ما يروى من أقواله من شأن التربية والعلم فمنه ما يأتي :

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد

اطلبوا العلم ولو في الصين

العلماء ورثة الأنبياء

أفضل الناس المؤمن العالم

يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء

بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم ، ووردت الآية الآتية في القرآن (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " إذا هذه هي البراءة قولا وفعلا ، والآن يجدر بنا أن نبحث فلسفة التربية عند العرب وغرضهم منها .

الغرض من التربية

إذا حللنا العوامل التي حدت العرب على طلب العلم وجدناها كثيرة، وقلما يقوم أي عمل من أعمال الإنسان على دافع واحد ، إنما هو نتيجة عدة أغراض وعوامل ومحركات ، وربما جاز لنا تحليل غرض التربية عند العرب إلى أربعة عوامل ، وهي العامل الديني ، والاجتماعي ، والعقل، والمادي ، ولنبدأ بالعمل الأول وهو :

١ – العامل الديني

لا يختلف اثنان في أن الدين كان أساس التعليم عند المسلمين وعند الإفرنج ، فكان غرض المسلمين من فتح المدارس دينيا ، وهكذا كان غرض الإفرنج ، تعلم الناس القراءة للوقوف على الكتب المقدسة ، وكان المعلمون من رجال الدين ، وكثير من العرب ، رجالا ونساء ، وقفوا أموالهم وأملاكهم على العلم لأجل نيل الأجر والتبرك ، وقد مر بنا أن نظام الملك ومن جاء بعده فتحوا المدارس لمقاومة الشيعة ومؤازرة المذهب السني ، وعلى الجملة فقد كان الدين عاملا فعالا في التربية

عند العرب ، ولهذا يجب على العلم وأهله في هذا العصر الاعتراف بما للدين من الفضل عليهم .

هذا ومع أن علاقة العلم بالدين أمر بديهي ، فلا بأس من الاستشهاد بما قاله العرب في هذا الصدد : " ينبغي أن ينوي بطلب العلم رضا الله تعالى والآخرة ، وإزالة الجهل من نفسه وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين وإبقاء الإسلام . فإن بقاء الإسلام بالعلم " . وإليك رأي جمعية إخوان الصفا التي قامت في البصرة في القرن العاشر للميلاد : " اعلم يا أخير أن كل علم وأدب لا يحمل صاحبه على طلب الآخرة ولا يعينه على الوصول إليها فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة " . وربما كان الغزالي من أهم من صرحوا بجعل التربية والعلم والتعليم وسائل لنشر الدين ، وللآخرة وللفضيلة والأخلاق ، وجعل الغزالي لمسألة " النية " مقاما رفيعا في فلسفته للتربية ، وربما كان أفضل الطرق لفهم الغرض الديني للتعليم العربي هو النظر في أمر النية ، وهاك آراء حجة الإسلام كما بينها في كتابه المسمى بفاتحة العلوم :

الفضل الثاني من " فاتحة العلوم " فصل عنوانه " في تصحيح النية في طلب العلم " . وفيه يقول : " إن تحصيل العلم عبادة ، بل هو أفضل العبادات .. قال (صلى الله عليه وسلم) لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتجاروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم . فمن فعل ذلك فهو في النار ... فيفهم من هذا أن من طلب العلم ليكتسب به مالا أو ينال به عند الخلق مرتبة أو جاها أو يستفيد به بين عشيرته

وأقاربه عزاص أو احتراما أو يحرس به ماله عن الأطماع وعن احتياج الظلمة أو ليخفف عن نفسه خراج السلطان أو ليدفع عن نفسه أذى الجيران وتكبر الأقران ومحاسدة الأقارب ومعاداة الأجانب ، وجميع ما يجري مجراه من الأغراض ، سوى ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى وامتثال أمره والتقرب منه إحياء دينه وشريعة نبيه فهو عاق بتعلمه متعرض لسخط الله سبحانه وتعالى منخرط في سلك علماء السوء ، ومتعرض للوعيد الوارد في حقهم كما ورد في حق بلعام بن باعورا .. إن من تعلم العلم لغرض من الأغراض سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى فهو عاص ظالم " .

وإذا كان الغرض دينيا من التعلم فهو ديني أيضا من التعليم ، إذ قال الغزالي : " كما يجب تصحيح النية على المتعلم ، وإن ما انطبق على طلب العلم والتعلم فهو ينطبق على طلب التعليم ، فإن علم المعلم لغرض غير مرضاة الله ونشر الدين والفضيلة فلا يجوز له أخذ مرتبه أو جرايته وسيكون تعليمه فاسدا ... وأما القياس فهو أن التعلم والتعليم عبادة .. ولا ينبغي أن يقصد به (المعلم) انتشار الصيت وقيام الجاه في قلوب السلاطين وفي قلوب العوام ، ولا أن يقصد به الاستخدام والاستشباع والتظاهر بكثرة الأنصار والأتباع ومباهاة الأقران بكثرة الأصحاب ، ولا ينبغي أن يمن على تلامذته بتعليمه حتى ينتظر منه ثوابا وجزاء وخدمة وموالاة ونصرة ، فكل ذلك يفسد نية العبادة .. وكذلك للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة ، ويأخذ الرزق بلغة ميسرة للمقصود" .

ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد الطويل لإثبات هذه القضية ، وكفى أن نقول إن رهطا من كتاب العرب مثل الزرنوجي والكناني وابن عبدالبر النمري القرطبي وابن خلدون وغيرهم صرحوا بما صرح به الغزالي ، وهو أن الغرض الأساسي للعلم والتعليم والتعلم إن هو إلا الدين وإرضاء الله وطلب الآخرة . وقد قال صاحب المدخل " طلبنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا الله " .

٢- العامل الاجتماعي

قلنا إن الغرض الأسمى من التربية عند العرب كان الغرض الديني ، غير أنه إذا اكتفينا بهذا فنكون قد اكتفينا بنصف الحقيقة أو ثلاثة أرباعها ، لأنه وإن كانت التربية العربية ذات هدف ديني ، فقد دخل فيها أمر آخر إلا وهو العامل الاجتماعي ، وإليك ما عندنا من الأدلة على هذا :

لا شك في أن العلم يرفع مستوى صاحبه الاجتماعي ، ولهذا السبب أقبل بعضهم على طلب العلم . وقد قال الشاعر :

وما العلم إلا ما أفادك قوة ... تنال به عزا وتنقاد للتقوى

ويروى عن عبدالملك بن مروان أنه قال لبنيه :

" يا بني تعلموا العلم ، فإن استغنيتم كان لكم جمالا ، وإن افتقرتم كان لكم مالا " . وقال ابن المقفع " اطلبوا العلم ، فإن كنتم ملوكا برزتم وإن كنتم سوقة عشتم " . ويدور على ألسنة العامة القول الآتي :

تعلـــم يـــا فتـــى تـــدعى أميـــرا   ولا تـــك جـــاهلا ترعـــى حميـــرا

ومن كلام الغزالي نفسه يستنتج أن كثيرين إنما طلبوا العلم وتعاطوا مهنة التعليم لمطامع اجتماعية مثل " المباهاة " و " طلب العز " و " الجاة " و " الاحتراش وغيرها ، ومما ورد في رسائل إخوان الصفا أن العلم يكسب صاحبه عشر خصال محمودة وهي : الشرف والعز والغناء والقوة والنبل والقرب والقدر والجود والحياء والمهابة .

وليس بخاف أن كل هذه الخصال تنتهي بصاحبها إلى المقام الاجتماعي المكتسب من العلم ، ولا جدال أيضا في أن ذلك لم أحسن حسنات العقلية العربية التي احترمت المتعلم وجعلت له مقاما اجتماعيا رفيعا ، وإن لم يكن عريقا في النسب ، ويدخل هذا العامل الاجتماعي في طلب العلم عند العرب اليوم كما هو عند غيرهم من الأمم ، فالطموح الاجتماعي إذا كان دافعا عظيما لكثير من العرب إلى طلب العلم والأدب والاشتغال بالمهن الحرة .

٣- التلذذ العقلي

" كفى بلذه العلم والفقه والفهم داعيا وباعثا "

لا ينكر أحد تفوق الإغريق على كل الشعوب في طلب العلم وحب الجمال والرياض البدنية والتمثيل لنفسها ، لا لأغراض خارجية ، فقد أحب اليونان كل شئ جميل ، ومالوا إلى الاعتدال في كل الأمور ، وأرادوا الفضيلة ، لا للذهاب إلى الجنة ولا للكسب ولا لشئ آخر بل

حبا بالجميل لنفسه ، والكامل لذاته والفضيلة لمجرد كونها فضيلته ، وأما العرب وغيرهم فقلما وصلوا إلى هذا المستوى لأنهم طلبوا العلم – كما أظهرنا – للثواب وللآخرة ولإرضاء الله تعالى ولنشر الدين وللمقام الاجتماعي ، وما يقال عن العرب من هذه الجهة يقال عن بقية الساميين أيضا ، ومع أن العرب طلبوا العلم لأغراض خارجية ، لم تخل فلسفتهم من ذلك المبدأ الإغريقي النبيل ، ألا وهو طلب العلم لنفسه ، والذي يدل على هذا كلمات الشيخ برهان الدين الزرنوجي " وكفى بلذة العلم والفقه والفهم داعيا وباعثا " .

والجاحظ يروي قولا ربما يدل على هذا المعنى وهو " اقصد من أصناف العلم إلى ما هو أشهى لنفسك واخف على قلبك ، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك وسهولته عليك " . وأيضا " لست أطلب العلم طمعا في بلوغ غايته والوقوف على نهايته ، ولكن التماس ما لا يسع جهله ولا يحسن بالعقل إغفاله " .

ونذكر القارئ بالمناظرة التي قامت بين طالبين في الأندلس إذ قال أحدهما للآخر " لم أرجع به (بالعلم) إلا علو القرد العلمي في الدنيا والآخرة " .

ومن خير ما قيل في طلب العلم لنفسه ، وللتلذذ العقلي فقط ، كلام الحاج خليفة في كشف الظنون حيث يقول " فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب ، بل الاطلاع على الحقائق تهذيب الأخلاق ، على أن

من تعلم للاحتراف ، لم يأت عالما إنما جاء شبيها بالعلماء ، ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به . ولما بلغهم بناء المدارس ببغداد ، أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل " . فهذه هي الروح العلمية الحقة التي لا تشوبها شائبة مع الطمع الاجتماعي، هذه هي الروح العلمية التي تجلت عن علماء الإغريق مثل سقراط وأفلاطون ، ومما يسر أنها لم تكن مفقودة عند العرب ، ويجب لفت النظر إلى الكلمات الآتية التي نقلت من قول الحاج خليفة لإظهار ما نحن بصدده :

" من تعلم علما للاحتراف ، لم يأت عالما ، إنما جاء شبيها بالعلماء . العلوم ليس الغرض منها الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق ، لما بلغهم بناء المدارس أقاموا مأتم العلم " .

فقد قام بين العرب رجال قدروا العلم حق قدره . وطلبوه حبا به وصرفوا السنين الطوال في الوقوف عليه ، ورحلوا وتحملوا المشاق في سبيله ، وكفاك شاهدا على ذلك ابن الخطيب التبريزي الذي حمل الكتب على ظهره وقطع المسافة الطويلة من بلاد الفرس إلى المعرة كي يقف على حقيقة علمية يأخذها عن أبي العلاء المعري .

٤– العامل المادي

مهما اهتم الناس بالآخرة ومهما اهتموا بأمور النفس فلا غنى لهم عن الاهتمام بأمور الدنيا وحاجات الجسد من مأكل ومشرب وملبس ، ومع أن التربية العربية اصطبغت بصبغة دينية واجتماعية وأدبية ، فقد شملت أيضا مقصدا آخر ، وهو المقصد المادي . ولا مراء في أن بعض من طلبوا العلم من العرب إنما طلبوه لتحصيل المعاش وجمع المال والإثراء . ولقد جئنا بقول عبدالملك بن مروان لبنيه ، إنهم إذا افتقروا كان العلم لهم مالا ، ونعيد أيضا رأي ابن المقفع في أن العلم يعيش صاحبه . وقد ذكر ابن خلدون في المقدمة أن عددا كبيرا من الناس طلبوا العلم وانتظموا في سلك التعليم للارتزاق ، وكثرة نهي الغزالي الناس عن طلب العلم لغير الأغراض السماوية ، تدل على أنهم اتخذوا العلم والمال وللماديات .

وخلاصة القول أن فلسفة التربية عند العرب كانت فلسفة القرون الوسطى في إنهماكها بأمور الآخرة أولا واهتمامها بغيرها ثانيا ، ولعل طلبة العلم لم يحللوا عقليتهم ولم يدرسوا أغراضهم من التربية ، بل أقدموا على الدرس والمطالعة والرحلة لشوق في نفوسهم ، وربما طلب بعضهم العلم لغرض واحد من هذه الأغراض التي أتينا بها لجميعها .

الفصل الثامن

كتب التربية عند العرب

قال المستشرق مكدونلد إنه لم يعثر على كتب تختص بالتربية عند العرب، ونستغرب هذا من أستاذ اشتهر بسعة اطلاعه على الكتب العربية، غير أننا نقدم – بالرغم عن زعم الدكتور مكدونلد – لائحة تحتوي على أسماء الكتب التي ألفها العرب في موضوع التربية . هذا وإننا على يقين من أننا لم نقف على أسماء كل الكتب التي ألفت ، ولابد للمستقبل من أن يكشف اللثام عن عدد منها .

ومن المؤلفات الآتي ذكرها ، وقفنا عليه شخصيا أو وثقنا بفهارس رسمية لدور الكتب في برلين وباريس ولندن والقاهرة ، هذا عدا كتاب الفهرست لابن النديم وكشف الظنون للحاج خليفة ومجلدين نفيسين للمستشرق الألماني بروكلمان اللذين يعدد فيهما مؤلفات العرب ذاكرا شيئا عن مادتها ومؤلفيها . ونقول بهذه المناسبة إننا نتمنى أن يهتم بعض أدبائنا المثرين بهذا الموضوع ويذهبوا إلى دور الكتب المخلفة ويدرسوا هذه المخطوطات ثم يطبعوها حفظا لها وخدمة للعلم وللأدب .

أما الكتب التي وقفنا عليها فهي :

١– كتاب المعلمين للجاحظ (٢٥٨ هـ ، ٨٧١ م)

يذكر ياقوت هذا الكتاب في معجم الأدباء ٦ : ٧٦ في كلامه على الجاحظ، ويقول شيئا عن مضمونه . غير أنه من المعقول أن يكون الجاحظ قد كتب عن المعلمين إذ فتح بابا " في ذكر المعلمين " في كتاب البيان والتبيين الجزء الأول صفحة ١٣٩ .

٢- رياضة المتعلم لأبي عبدالله بن الزبير (٣١٧ هـ و ٩٢٩ م) يذكر السيد عيسى المعلوف هذا الكتاب في المتقتطف مجلد ٥٧: ٣٦٦ لسنة ١٩٢٠. ومما يقوله بروكلمان أن ابن الزبير كان من أشهر مدرسي الفقه في زمانه في البصرة وفي بغداد. (راجع بروكلمان ١ : ١٨٠).

Brockelmann : geschichte der arbichen litteratur .

وينسب الحاج خليفة كتابا باسم رياض المتعلم إلى عدة مؤلفين :

أ- حمزة بن يوسف الحموي (٦٧٠ هـ ، ١٢٧١ م)

ب- أبو عبدالله أحمد بن سليمن الزيري (كذا) البصري . وربما كان هذا الزبيري

ج- أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني

د- ابن السنى

٣- كتاب العلم والتعليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي (٣٢٢ هـ و ٩٣٤) مخطوط في برلين نمرو ١٤٦ . راجع كشف اهلفارط لدور

الكتب في برلين ١ : ٥٣ . ويقول بروكلمان أن ابن سهل كان من تلامذة الكندي . ويذكر ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٤١ أن أحمد بن سهل البلخي "كان معلما للصبيان ثم رفعه العلم إلى مرتبة علية".

وله ذكر أيضا في كشف الظنون ٥ : ١١٩

٤- كتاب العالم والمتعلم لأبي محمد بن حيان البستي (٣٥٤ هـ و٩٦٥ م) وينسب صاحب كشف الظنون ٥ : ١١٣ هذا الكتاب إلى الإمام أبي حنيفة .

٥- كتاب العالم والمتعلم لأحمد بن إبان بن السيد اللغوي الأندلسي (٣٨٢ هـ ، ٩٩٢ م) ولهذا الكتاب ذكر في معجم الأدباء ١ : ٣٦٤

٦- تلقين المتعلم لأبي عباده إبراهيم بن محمد (٤٠٠ هـ و ١٠٠٩م).

راجع كشف الظنون ٢ : ٤١٨

٧- الدر النظيم في أحوال العلوم والتعليم ومؤلفه ابن سينا (٤٢٨ هـ و١٠٣٦ م) على رأي اهلفارط ١ : ٥٣ وعلى قول كشف الظنون ٣ : ١٩٧ وأما بروكلمان فمخالف لهذا الرأي (راجع بروكلمان ٢: ١٣٧)

٨- العالم والمتعلم لأبي الحسن علي بن اسماعيل المرسي بن سيده (٤٥٨ هـ ، ١٠٦٦ م) برلين نمرو ١٤٦

.. راجع اهلفارط ١ : ٥٣ بروكلمان ١ : ٣٠٩

٩- جامع بيان العلم لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (٤٦٣ هـ ، ١٠٧١ م)

طبع مختصر لهذا الكتاب بمطبعة الموسوعات في مصر سنة ١٣٢٠ هجرية .

١٠- الصفات والأدوات التي يبتدئ بها الأحداث لعبدالله ابن علي الهروي المؤدب (٤٨٩ هـ و ١٠٩٥ م)

راجع المقتطف ٥٧ : ٣٦٦

١١- فاتحة العلوم للغزالي (٥٠٥ هـ و ١١١١ م)

طبع بالقاهرة بالمطبعة الحسينية ١٣٢٢ هجرية

وهذه محتوياته :

في فضيلة طلب العلم

في فضيلة الإرشاد والتعليم

في بيان شرف العلم والتعليم من حيث الشواهد العقلية

في تصحيح النية في طلب العلم

في أقسام العلوم

آداب العالم والمتعلم

وتشبه بعض مواد هذا الكتاب ما جاء عن التعليم في كتاب إحياء علوم الدين .

١٢- إحياء علوم الدين للغزالي - المجلد الأول والباب الأول ص ٥ - ٧٧ المجلد الثالث ص ٦٢ - ٦٤

١٣- ميزان العمل للغزالي . طبع مصر

ومما يشرحه الغزالي في هذا الكتاب علاقة القوى العقلية بأقسام الدماغ . وهذه مساكن القوى العقلية المختلفة على رأي الغزالي :

أ- القوة المفكرة مسكنها وسط الدماغ بنزلة الملك الذي يسكن وسط المملكة

ب- القوة الخيالية مسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده إذ مجتمع الأخبار عنده .

ج- القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر جارية مجرى خادمه .

د- القوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه

هـ- الحواس جارية مجرى الجواسيس

١٤- الإملاء والاستملاد لعبد الكريم بن محمد بن السمعاني (٥٦٢ هـ و ١١٦ م) في برلين نمرو ١٤٦ . راجع اهلفارط ١ : ٣١ وربما كان هذا الكتاب ما يسميه الحاج خليفة " بأدب الإملاء " (راجع كشف الظنون ١ : ٢١٨)

١٥- آداب المريدين لأبي النجيب عبدالقادر بن عبدالله السهروردي (٥٦٣ هـ و ١١٦٧ م) في دار الكتاب بمصر

راجع الفهرس مجلد ٢ : ٦١ وكشف الظنون ١ : ٢١٤ .

ويقول بروكلمان " عبدالقاهر " عوضا عن " عبدالقادر " وعلى رأيه أن هذا مخطوط في برلين نمرة ٣٠٤٨ وفي باريس نمرة ١٣٣٧ وفي الجزائر نمرة ٩٠٨ ونسختان في الأستانة . راجع بروكلمان ١ : ٤٣٦

١٦- تلقين المبتدي لعبد الحق بن عبدالله الإشبيلي (٥٨١ هـ و ١١٨٥ م) في برلين نمرة ٣٢٠٦ . راجع اهلفارط ٣ : ١٦٠ وكشف الظنون ٢ : ٤١٧ .

١٧- تعليم المتعلم لبرهان الدين الزرنوجي (٦٠٠ هـ و ١٢٠٣ م)

وربما كان هذا الكتاب أفضل ما اشتهر من كتب العرب في التربية ولقد ترجمه إلى اللغة الاتينية ريلان (h.reland) سنة ١٧٠٩ واسم الكتاب باللاتينية (enchiridon studosi) وطبعه أيضا كاسباري (cabari) سنة ١٨٣٨ م

ويذكر بروكلمان أن هذا الكتاب محفوظ في كل دور الكتب ولقد رأينا نسخة لاتينية في نيويورك . والعربية مطبوعة ثانية في مصر سنة ١٣٣٢ هـ و ١٩١٤ م بالمطبعة الخيرية وهي في صفحة

وأما محتويات هذا الكتاب الشهير فهي :

فصل في ماهية العلم والفقه وفضله

فصل في النية في حال التعلم

فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات عليه

فصل في تعظيم العلم وأهله

فصل في الجد والمواظبة والهمة

فصل في بداية السبق وقدره وترتيبه

فصل في التوكل

فصل في وقت التحصيل

فصل في الشفقه والنصيحة

فصل في الاستفادة

فصل في الورع

فصل فيما يورث النسيان

فصل فيما يجلب الرزق

١٨- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم لبرهان الدين أبي إسحق إبراهيم سعدالله بن جماعة الكناني (٧٣٣ هـ و١٣٣٣م)

مخطوط في برلين نمرة ١٤٢ جوثا ١٦٢

ويذكر السيد عيسى إسكندر المعلوف أنه شاهده في مجموعة مقامات السيوطي في المكتبة الظاهرة بدمشق (راجع المقتطف مجلد ٥٧ : ٣٧٦) ويذكر الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ٢٩٥) وبروكلمان (٧٥٠٢)

إن ابن جماعة ألف هذا الكتاب سنة ٦٧٢ هـ ، ١٢٧٣ م وقد حصلنا بواسطة دار الكتب في برلين على صورة فوتوغرافية لهذا المخطوط فوجدنا خطه حسنا يقرأ بكل سهولة . ويذكر أنه نسخ في سنة ١٠٨٧ هـ، ١٦٧٦ م وتبدأ صفحاته من 83a إلى a 47.

ولسوء الحظ يظهر أن هذا المخطوط ناقص كما سيأتي :

يقول ابن جماعة في صفحة ٣٩ " وقد رتبته على خمسة أبواب :

الباب الأول : في فضل العلم وأهله

الباب الثاني : في آداب العالم في نفسه ودرسه ومع طلبته

الباب الثالث : في آداب المتعلم في نفسه ومع شيخه ورفقته

الباب الرابع : في آداب مصاحبة الكتب وما يتعلق بها

الباب الخامس : في آداب سكني المدارس وما يتعلق بها "

وأما النقص فيظهر بين الصفحتين ٤٠ ، ٤١ من المخطوط إذ لا يتبع الكلام في أول صفحة ٤١ ما جاء في آخر صفحة ٤٠ .

ثم إذا جئنا إلى القسم الثاني وجدناه " فصلا " مع أن المؤلف وضع الكتاب في خمسة " أبواب " لا " فصول " . ويظهر أن الباب الثالث والرابع محذوفان إذ يرى من المخطوط أن البحث بدأ في "

آداب سكني المدارس ولم يبحث مواد الباب الثالث والرابع .. ويظهر أن من كتب أرقام صحف المخطوط لم يقف على المادة لأن الأرقام متتالية غير دالة على حذف أو نقصان .

١٩- المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد لمحمد بن سليمان العافري الشاطبي (٦٧٢ هـ و ١٢٧٣ م) برلين نمرة ١٤٦ . راجع اهلفارط ٥ : ٥٣ وكشف الظنون ٦ : ٢٢

٢٠- أخبار الربط والمدارس لعلي بن أنجب بن عثمان البغدادي ابن الساعي (٦٧٤ هو ١٢٧٣ م) برلين نمرو ١٤٦ . راجع اهلفارط ١ : ٥٣ وكشف الظنون ١ : ١٨٦

٢١- أدب الدارس والمدرس لمحيي الدين بن شرف النووي (٦٧٦ هـ و ١٢٧٨ م) راجع المقتطف ٧ : ٣٧٦

٢٢- سراج المستفيد وغنيمة المفيد لسعيد بن محمد الفرغاني الحنفي (٦٩٩ هـ ، ١٢٩٩ م) برلين نمرة ٣٢٠٦ . راجع اهلفارط ٣ : ١٦٠ وكشف الظنون ٣ : ٥٨٨

٢٣- أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين لأبي الحسن علي بن محمد القابسي ، وتاريخ هذا المخطوط هو (٧٠٦ هـ و ١٣٠٦ م) وهو في دار الكتب في باريس نمرة ٤٦٩٥ . راجع cataiogue des manuscripts arbes bibliotheque natinale , paris p. 700

صفحة من مخطوطة تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة في برلين

صفحة من مخطوطة تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة في برلين

٢٤- كتاب المدخل لمحمد العبدري . فرغ من تأليفه سنة (٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م) وطبع بالمطبعة الشرفية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ . راجع المجلد الأول صفحة ٥٦ - ٩٧ - ٢٠٢ - ٢٠٧ . والمجلد الثاني صفحة ٣ - ١٠٤ .

٢٥- إحياء النفوس في صنعة إلقاء الدروس لتقي الدين علي ابن عبدالكافي السبكي سنة (٧٥٦ هـ و ١٤٥٥ م) براين نمرة ١٤٦.

راجع المجلد الأول صفحة ٥٦ - ٩٧ - ٢٠٢ - ٢٠٧ . والمجلد الثاني صفحة ٣ - ١٠٤ .

٢٦- مقدمة ابن خلدون سنة (٨٠٨ هـو ١٤٠٥ م)

في هذا الكتاب الشهير فصول مهمة عن التربية والتعليم وفلسفتهما وأساليبهما ومن المعلوم أن دي سلان (De Slane) نقل هذه المقدمة إلى الإفرنسية .

٢٧- كتاب الدارس في أخبار المدارس لأحمد بن حجي السعدي الحسباني الدمشقي الشافعي (٨١٦ هـ- ١٤١٣ م) ذكره السخاوي في الضوء اللامع .

٢٨- هداية المتعلم وعمدة المتعلم لأحمد بن محمد بن سليمان الزاهد شهاب الدين (٨١٩ هـ ، ١٤١٦ م) برلين نمرة ٣٢٠٦ راجع اهلفارط ٣ : ١٦٠

٢٩- شفاء المتألم في آداب المتعلم لعبد اللطيف بن عبدالرحمن المقدسي (٨٥٦ هـ و ١٤٥٢ م) برلين نمرة ١٤٦ . راجع اهلفارط ١ : ٥٣ وكشف الظنون ٤ : ٦٣٤

ويقول السيد عيسى اسكندر المعلوف في المجلد ١٥٧ من المقتطف و " هذا الكتاب من أتم عرف من نوعه من الكتب ومن أكثرها تفصيلا (راجع مقالته في المقتطف عن التربية عند العرب مجلد ١٥٧)

٣٠- رسالة في التربية والتسليك لبرهان الدين الأقصرائي (٩٠٨ هـ ، ١٥٠٢ م) في دار الكتب بمصر . راجع الفهرس مجلد ٦ : ١٤٣

٣١- الأمر الدارس في الأحكام المتعلقة بالمدارس لعوان بن علي بن عطية (٩٣٦ هـ و ١٥٢٩ م) برلين نمرة ٣١٨٢ . راجع اهلفارط ٣ : ٥٢

وكشف الظنون ٢ : ٤٢٧ وبروكلمان ٢ : ٣٣٣

ويحتوي هذا الكتاب على الفصول الآتية :

" في المدرسة وما يتعلق بها .

في المدرس وما يلزمه

في الدارس وما يتوجب عليه

٣٢- تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى ما في دمشق من الجوامع والمساجد والمدارس لعبدالقادر النعيمي (٩٢٧ هـ و ١٥٢١ م)

اختصره عبدالباسط بن موسى العلموي (٩٨١ هـ و ١٥٧٣ م) ونسخة الثاني في المتحف البريطاني نمرة ٧٠٦ 99 foll وأخرى بمكتبة مونيخ نمرة ٣٦٧ وغيرها ببرلين نمرة ٤٠٨٤ (راجع بوكلمان ٢ : ١٣٣) وغيرها في مكتبة المرحوم عبدالقادر المؤيد بدمشق . وفي مكتبة المجتمع العلمي العربي بدمشق نسخة حديثة منه

واختصره أيضا أحمد البقاعي من رجال القرن العاشر وقد ترجمه سوفير (H.sauvaire) في الجورنال الأسياتيك في عدة مقالات عنوانها " وص دمشق "

Description de damas joual asiatque 9me serie tom III .p.251

ويحتوي هذا الكتاب النفيس على الأبواب الآتية :

في دور القرآن – في مدارس الحنابلة

في دور الحديث – في البرباطات

– في مدارس الشافعية – في الخوانق

– في مدارس الحنفية – في التراب

– في مدارس المالكية – الخاتمة في الجوامع

– في مدارسة الطب

٣٣– أحسن الطلاب فيما يلزم الشيخ والمريد من الآداب لعلي ابن خليل المرصفي (٩٣٠ هـ ، ١٥٢٤ م) برلين نمرة ٣٢٠٦ .
راجع اهلفارط ٣ : ١٦٠ وكشف الظنون ١ : ١٦٧

٣٤– الدر النضيد في آداب المفيد والمستفيد لأبي البركات بدر الدين محمد بن رضا الدين الغزي (٩٨٤ هـ ، ١٥٧٦ م) برلين نمرة ٣٢٠٦ .

ومما يذكر عنه في كشف الظنون ٣ : ١٩٦ ما يأتي :

مواده

في فضل الشغل وآدابه

في أقسام العلم الشرعي

في آداب المعلم والمتعلم

ورتبه على مقدمة وستة أبواب وخاتمة . وفرغ منه سنة ٩٣٢ هـ و ١٥٢٥ م

٣٥– اللؤلو النظيم في ورم التعليم والتعلم لأبي يحيى زكريا الأنصاري (٩٢٦ هـ و ١٥٢٠ م) برلين نمرة ٧٩ (spr 1056) راجع

اهلفارط ١ : ٢٨ وفهرس دار الكتب بمصر مجلد ٧ : ٥٧ . وفي باتافيا في جزيرة جاوا

٣٦- مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده (٩٦٢ ه ، ١٥٥٤ م) طبع حيدر آباد في الهند . وما فيه عن التربية في المجلد الأول ص ١ - ٥٦

٣٧- تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال لأحمد بن حجر الهيثمي (٩٧٤ ه و ١٥٦٦ م) برلين نمرة ١٤٥ (we 13)

راجع اهلفارط ١: ٥٣ وفهرس دار الكتب بمصر ٢: ١٤٨ و٦: ١١٩

ومواد هذا الكتاب هي :

مقصد أول : الأحاديث الدالة على شرف أهل القرآن

مقصد ثان : في بعض الأحاديث الواردة في فضائل معلمي القرآن ومتعلميه

مقصد ثالث : في بعض الأحاديث الدالة على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية

مقصد رابع : في بعض الأحاديث الدالة على امتناع أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية

مقصد خامس : في بيان اختلاف العلماء بالأخذ في الأحاديث السابقة

مقصد سادس : تحذير المعلم من نظر المرد الذين يعلمهم

مقصد سابع : الأسئلة والأجوبة التي هي سبب في هذا التأليف

٣٨- ما لا يسع المريد تركه لصبغة الله النقشبندي (١٠١٥ هـ و١٦٠٦ م) برلين نمرة ٣٢٠٦ . راجع اهلفارط ٣ : ١٦٠

٣٩- روض العارفين وتسليك المريدين تأليف مرعي بن يوسف أبي بكر الكرمي (١٠٣٣ هـ و١٦٢٤ م) برلين نمرو ٣٢٠

٤٠- بغية المستفيد في شرح تحفة المريد تأليف عبدالقادر العيد روسي ١٠٣٨ هـ و ١٦٢٨) برلين ٣٢٠٦ راجع اهلفارط ٣ : ١٦٠

٤١- آداب المريدين لتاج الدين بن زكريا العثماني (١٠٥٠ هـ و ١٦٤٠ م) برلين نمرة ٣١٨٩ راجع اهلفارط ٣ : ١٥٥

ومواد هذا الكتاب هي :

فصل في شرايط المشيخة وهي إحدى عشرة شريطة

فصل في شرايط المريد وهي إحدى عشرة شريطة

فصل في آداب المشيخة وهي اثنا عشر أدبا

فصل في آداب المريد مع الشيخ

وبين الكتب في " ديوان الهند " بلندن كتاب اسمه " رسالة في آداب المشيخة والمريدين " للمؤلف نفسه ولربما كان هو عين الكتاب .

راجع فهرس INDIA OFFICE LIBA\RARY B.293

أما رقم الكتاب فهو B.459

٤٢- قانون على أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلمين تأليف حسن بن مسعود اليوسي المراكشي (١١١١ هـ و ١٧٩٩ م) برلين نمرة ٩٥ (lbg 716) راجع اهلفارط ١ : ٣٥ . وبالخزانة التيمورية بالقاهرة مخطوط طبع فاس راجع بروكلمان ٢ : ٤٥٥

٤٣- تاريخ القلادة في كيفية الجلوس على السجادة لمصطفى بن كمال الدين بن علي الصديقي (١١٦٢ هـ و ١٧٤٩ م) برلين نمرة ٣١٥٩ pm: 216

٤٤- تحفة الجنان لأحمد حياتي المرعشي (١٢١٢ هـ و ١٧٩٧ م) في مكتبة المدرسة الداودية في بغداد . ويقول عنه المرحوم السيد

محمود شكري الألوسي علامة العراق أنه من الكتب النادرة في أصول التدريس والتعليم . راجع مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٢ : ٥٨ .

هذا ما وجدناه من الكتب العربية في موضوع التربية ، ويستنتج منها أن العرب اهتموا بالتربية وأساليبها وآداب المعلمين والطلبة وما شاكلها من المواضيع الفنية المتعلقة بالتربية والتعليم . وجدير بالذكر أن كتب التربية بدأت تظهر عند العرب في القرن التاسع للمسيح واستمرت إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر . ويظهر من هذه الكتب أن العرب بحثوا الذاكرة والنسيان والوقت المناسب للدرس والقوى المفكرة والمخيلة والصواب في طرق التعليم وهلم جرا .

هذا ويعيب هذه الكتب عدم الابتكار وعدم تنوع الآراء إذ يردد كثير من المؤلفين ما جاء به أسلافهم دون أن يذكروا أن مادتهم منقولة عن غيرهم . فالأفكار التي في كتاب مفتاح السعادة وكشف الظنون مثلا تكاد تكون الأفكار التي بثها من سبقها من المؤلفين . فيكون الواقف على بعض الكتب ، قد وقف على معظمها . ورأينا أن ما جاء به الغزالي من الآراء في التربية وأساليب التعليم هو الذي أثر التأثير الظاهر فيما جاء بعده . ويلوح لنا أن لكلام الغزالي رنة ووقعا ليسا لكلام غيره من المؤلفين . وأما كتاب الزرنوجي " تعليم المتعلم " فقد يعد من أشهر ما كتبه العرب في هذا الشأن غير أنه كتاب صغير لا يكاد يكون كتابا . وزد

على ذلك أن بعض مواده مضحكة كقوله إنه مما يورث النسيان قراءة ألواح القبور وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء إلخ .

ونقول في الختام : إن بعض الآداب التي تطلب من المعلمين والطلبة ربما تظهر لنا سخيفة ، غير أن سخافتها تقل إذا تذكرنا العصر الذي كتبت فيه والظروف التي اقتضت تلك الآداب .

وإذا قابلنا اهتمام العرب في " كيفية الجلوس على السجادة " بانهماك علماء أوروبا في القرون الوسطى في تحديد عدد الملائكة الذين يمكنهم الوقوف على رأس إبرة وجدناهما سيين في السخافة وما أدرانا أن ما نكتبه اليوم لا يعد سخيفا في المستقبل !!

الفصل التاسع

الخاتمة

إن ما جاء في الفصول السابقة هو ما وقفنا عليه بشأن التربية والتعليم عند العرب ، واستقيناه من مصادر عربية أصلية مثل معجم البلدان ومعجم الأدباء والأغاني وابن خلكان والمقري والمقريزي والغزالي وابن خلدون وغيرهم كما يظهر من صفحات هذا الكتاب ، ولا ريب في أن هذه المصادر هي أهم المصادر الموجودة وهي التي يعول عليها المستشرقون ، هذا ومع ما يشوب هذه المصادر من المبالغة وعدم تحقيق في الكتابة والنقل ، فإنها تحتوي على الشئ الكثير مما يهمنا من أمر التربية ومما هو جدير بالثقة ، ومهما يكن من أمر فهذه المصادر هي المعروفة ، فمن الضروري أن ندرسها ونميز بين غثها وسمينها ، على أننا نترك الأمر للقارئ فهذه معلوماتنا في الموضوع نقدمها له وهو يحكم كما يشاء .

ومن الضروري أن نلفت النظر إلى الزمن الذي ظهرت فيه تربية العرب إذ كان ذلك فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر للميلاد ، غير خاف أن هذه العصور هي العصور الوسطى التي ساد فيها الاعتقاد بالسحر والشعوذة ، فيجب أن نذكر أن المدارس العربية والعلم العربي والنظام التدريسي ، كل هذه نشأت قبل اكتشاف كولموس أميركا ، وقبل

اختراع فن الطباعة ، وقبل ظهور العلم الحديث والميكروسكوب والمختبر والبخار والكهرباء ، ويتحتم علينا أن نحكم على التربية العربية ونقيسها بمقياس تلك العصور وذلك المستوى ، لا بمقياس القرن العشرين ومستواه .

وقد اعترض بعضهم على إقرارنا بفضل العرب على التربية بأن معظم من قاموا بها لم يكونوا عربا بل أعاجم ، ولهذا نقول إن تعريفنا لكلمة " عربي ليس بتعريف جنسي أو أثنولوجي ، بل ثقافي ، فمن تكلم باللغة العربية فهو عربي والناطقون بالضاد هم العرب ، ومثل العرب من هذا القبيل مثل أوروبا في القرون الوسطى إذ نبغ الهولاندي والإفرنسي والإنجليزي والإيطالي والبولوني غير أن ما قام به هؤلاء وما كتبوه نسب إلى الثقافة اللاتينية لأن تلك اللغة كانت لغة الثقافة والواسطة للكتابة، وهاك جوزف كونراد (Joseph Conrad) الكاتب الإنجليزي الشهير فهو بولوني الجنس، وخذ نابليون مثلا فإنه كان إيطالي الجنس غير أنه يعد إفرنسيا لأن تربيته وثقافته وروحه كانت إفرنسية . إذا فإن كان ابن سينا فارسيا من حيث الجنس والدم ، فقد كان عربيا من حيث الثقافة واللغة والروح ، فضلا عن أن كل ما كتبه كتبه باللغة العربية ، وهذه أميركا اليوم فإنها تضم رجالا من كل الأجناس البشرية ، غير أنه إذا كتبوا باللغة الانجليزية وعاشوا في أميركا يعدون أميركيين روحا ، وإن كانوا إيطاليين أو يونانين أو روسا أو يهودا جنسا ، وإذن فقد كان الوسط الذي نحن بصدده وسطا عربيا امتد من بخارى إلى قرطبة ، واشترك مع العرب في تشييد أركانه الفرس والترك والأكراد وغيرهم . ومع أن ثقافة العرب

وتربيتهم كانتا إسلاميتين ، فقد كان للمسيحيين ولليهود يد فيها وفضل عليهما ، وما صدق على أيام الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسي يصدق على عصر اليازجي والبستاني وغيرهما .

عيوب التربية عند العرب

أ- الجمود

نرى أن عيب التربية والتعليم عند العرب وفي المدارس العربية كان الجمود ، وهو البقاء على حالة واحدة وفكرة واحدة وأسلوب واحد في التعليم ، وقلة الابتكار والتجدد والانقلاب والتطور ، ولا شك في أن الجمود عاق سير التربية عند العرب إن لم يكن أوقفه تماما ، فإذا أخذنا الغزالي مثلا وهو من أشهر المربين عند العرب ، وجدنا أن بعض آرائه في التربية جامدة لا تبعث في الإنسان روح البحث ، وكفاك شاهدا على ذلك قوله: "السلامة في الاتباع والخطر في البحث عن الأشياء". فقصى بقوله هذا على الابتكار والاجتهاد والتطور والمختبر والتجربة التي هي أساس العلم . ورأى الغزالي يقضي على الميكروسكوب وعلى كل آلة حديثة غرضها المساعدة على البحث والتنقيب عن الحقيقة . فسلامة الغزالي هي سلامة الموت ، إذ الأموات لا خطر عليهم فلا يخطئون ولا يتحركون ، ولا شك في أن من يذم " البحث عن الأشياء " يقتل العلم ويخنق روح التقدم ويستأصل جراثيم كل حركة فكرية .

ولم ينفرد الغزالي بهذا الرأي ، بل رأى رأيه غيره من العرب فكانت عقلية بعضهم أشبه ببركة ماء مالت إلى السكينة والركود منها بنهر جار متلاطم الأمواج ينهمر على الدوام ولاقي في طريقه الصخور والصعوبات والمشاق غير أنه يتغلب عليها ويصل أخيرا إلى البحر المحيط العظيم حيث الحرية التامة الخالية من كل قيد . وما قاله المقري يثبت رأي الغزالي وهو : " فضل من فضل بالاتباع وهلك من هلك بالابتداع " .

هذا وإذا أنعمنا النظر في هذه الفكرة رأينا أنها تخالف ما هو معروف عندنا اليوم في أنه فضل من فضل بالابتداع وهلك من هلك بالاتباع . فالصين هلكت واليابان فضلت لأن الأولى اتخذت الاتباع والثانية اختارت الابتداع ، ويستعمر الغرب الشرق اليوم لأنه ابتدع وابتكر واخترع الآلة الحديثة والبواخر والسيارات والطيارات ، وأما الشرق فهلك لأنه اختار " السلامة " واستنكف من " البحث عن الأشياء " وخاف من الابتداع ولجأ إلى الاتباع ، لذلك نكرر القول إن جمود العرب كان أعظم عائق في سبيل تقدم أفكارهم وفلسفتهم وأسلوبهم في التربية والتعليم ، فمن الضروري اليوم أن نتخلص من هذه العقلية ، ومن تلك النظريات لأنها تبتغي " السلامة " ونحن قوم نريد الحياة لا " السلامة " . فالحياة والسلامة نقيضان لا يجتمعان ، مظاهر الأولى الخطر والحركة والتطور والتنقل والتجدد ، ومظاهر الثانية الهدوء والجمود والموت ومن قال " ليس في الإمكان أبدع مما كان " كفر بالحياة وآمن بالموت الأبدي .

ب- القيود الدينية

سبق أن قلنا إن للدين فضلا على التربية لأن المعلمين كانوا أولا من رجال الدين وكانت الجوامع والأديار هي المدارس ، نعم خدم الدين العلم ، غير أنه عاق سيره أيضا ، عاق الدين ورجاله سير العلم لأنهم حاولوا احتكار الحقيقة ومنع الناس من البحث والتنقيب والتدقيق في الأمور ، ولا يمكننا أن نفرق بين دين وآخر في هذا الشأن ، لأن كل الأديان ، في خدمتها للإنسانية وتحسينها حالة البشر لم ترض بمعارض أو مقاوم ، هذا وإذا قلنا إن الإسلام خدم التربية والتعليم عند العرب فإنه أيضا قيدهم ومنعهما من التقدم وأبقاهما حيث كانا في العصور الوسطى ، وليس قولنا هذا من التحامل على الإسلام في شئ لأن هذا انطبق على الدين المسيحي أيضا وينطبق عليه الآن ، فما قولنا في أحد الكهنة ، الذي قاوم فتح ترعة بناما لأن فتحها كان مخالفا (على رأيه) لإرادة الله تعالى حيث يقول في الإنجيل : " فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان " . وهذا مثال من عدة أمثلة تدل على مقاومة الكنيسة للمشاريع العلمية والعمرانية .

قال الغزالي : " لا تكن بحاثا عن علوم ذمها الشرع " . وكان عنده طائفة من العلوم سماها " بالعلوم المذمومة " منها الطبيعيات والفلسفة . وقال ابن خلدون : إن " الفلسفة ضررها في الدين كثير " . وسمى الكيماويون بالزنادقة ، وسجن ابن رشد ، واضطهد غيره لأنهم تعاطوا العلوم المذمومة التي خالفت الشرع . فذلك النظام الذي حاول أن

يحصر العقلية والأعمال الفكرية ضمن دائرة معلومة أضر بالتربية ، ولا يرجى خير من التعليم إن لم تعط عقول الطلبة والمشتغلين بالتربية مجالا واسعا للطواف والارتياد ، فلو لم يخاطر كولمبوس لما اكتشف عالما جديدا ، ولو لم يخاطر العلماء لما اهتدى البشر إلى حقيقة جديدة ، أنقذ روجر باكون تربية العصور الوسطى من عفونتها لأنه ثار على أرسطو وعلى آرائه وفلسفته ، وأما التربية العربية فلم ينقذهم أحد ، جاء العلم الحديث وظهرت التربية الجديدة ، وتربية العرب باقية كما عرفها الغزالي والشيرازي والزرنوجي ، وما للتربية العربية اليوم من خلاص وسلامة إلا بالمخاطرة العقلية وعدم الخوف من الآراء الجديدة والتجربة والتجدد ، لا مناص من فك القيود التي تقيد عقولنا وتربيتنا ، ولقد أجاد أحد فلاسفة اليونان في قوله " اتبع البرهان حيثما اقتادك . " فالخلاص للعرب ولتربيتهم في اتباع الحجة والبرهان والدليل والاختبار البشري إلى حيث شاءت بلا قيد على الاطلاق .

ج- من عيوب التربية العربية في رأينا سيطرة العلوم النقلية أو اللسانية على برنامجها . لأنه وإن كان للعلوم الطبيعية مقام ، فإنه لم يكن لها المقام الرسمي ولا المركز الأول ، فقد اضطهدت وعلمت خفية . كان منهج المدارس العربية كما أظهرنا منهمكا باللغة والمنطق العقيم وعلم الكلام وغيرها من العلوم اللسانية ، وغير خاف أن مدارس العرب ونظم التعليم في الشرق لم تتخلص من هذه الآفة، فنرى مدارسنا اليوم تقف الساعات الطوال بل السنين على تعيم أربعة جوه في إعراب "لا حوال ولا قوة إلا بالله " ولا نعلم كم وجها لتقديم الخبر على المبتدأ

وجوبا وجوازا، في حين أنها تهمل الكيمياء الضرورية وقتها في الألفاظ والقشور والمناظرات في الكلام، وهذا ما عاقها عن مماشاة الغرب والاستناد إلى المختبر والمعمل.

د. مما تؤاخذ عليه التربية العربية نقائص في أسلوبا وهي كثرة الحفظ والاعتماد على الذاكرة أكثر منه على القوة العاقلة ، فمن المعروف أنه كان ولم يزل للذاكرة شأن كبير عند العرب ، وطبيعة الحال تقضي بهذا ، لأن العلوم اللسانية والنقلية معظم تعلمها يتوقف على الحفظ ، حفظ الطلبة القرآن برمته ، وحفظوا الألفيات والأراجيز والقصائد الطويلة ، وحفظوا القواعد الصرفية والنحوية وحفظوا الأمثال ، وبعضهم يحفظ عن ظهر قلبه قواعد الحساب والعلوم الطبيعية ، ويرتبط هذا النقص بما ذكرناه أنفا من جهة عدم الابتكار ، بل اتباع القديم فالذاكرة تعيد ما قيل ولا تحتاج إلى خلق الأشياء الجديدة ، هذا ويجب ألا يغيب عن البال أن طلبة العرب اضطروا إلى حفظ الدروس في ذاكرتهم لعدم توافر الوسائط التي بين أيدينا الآن ، وهي تريحنا من عناء الذاكرة والاستظهار مثل القواميس والجداول التاريخية والخرائط والصور وغيرها ، كانت كتب المراجع قليلة عندهم ولهذا اضطروا إلى الالتجاء إلى ذاكرتهم ، تعودوا أن يتكلوا على الذاكرة وهذا بحكم الطبع ولد ضعفا في قوة التفكير .

هـ- من عيوب نظام التعليم عند العرب إماتة الاعتماد على النفس عند الناس وجعله إياهم اتكاليين ، وللإيضاح نقول إن معظم مدارس

العرب قامت على مبدأ الإحسان ، فالذين أنشأوا المدارس كانوا أفرادا من سلاطين أو ملوك أو أمراء أو محسنين ، لم ينشئ الناس مدارسهم لأولادهم، بل أنشأهما لهم المحسنون ، وهذا بلا شك مما يصغر ويميت احترام الناس لأنفسهم ، ويجعلهم مستعطين تشبه هذه العقلية عقلية العرب في أمور السياسة ، إذ تولى أمورهم خليفة أو سلطان أو أمير ، ولم تشترك الجماعات في تدبير الشئون السياسية ولم يحلموا في تأسيس مدارس يديرونها بأنفسهم ، بل اتكلوا دائما على من يؤسسها لهم ، وكثيرا ما أقفلت المدارس وغيرت أسماؤها وأحيلت أوقافها ، عند انتقال السلطة من يد سلطان أو أمير إلى آخر ، هذا لأن بعض الملوك أرادوا أن تنسب المدارس والجوامع والمعاهد الخيرية إليهم ، فأدت أنانيتيهم واستئثارهم بالشهرة وبخسهم حق أسلافهم ، إلى هدم ما كان هؤلاء قد شيدوه ، وهذا عاد بخسارة على المدارس وعلى التعليم .

ومما جعل الطلبة طائفة اتكالية مرتزقة كثرة الأوقاف المحبوسة على العلم ، والرغم عن أن هذه من أعظم حسنات العرب ، فهي في الوقت نفسه سيئة من سيئات نظامهم التعليمي ، لأن التعليم كان مجانا وهذا شجع عددا ليس بقليل على الالتجاء إلى المدارس ، لا لطب العلم ، بل للتعيش والارتزاق ، فجعلت الأوقاف المدارس لا لطلب العلم ، بل للتعيش والارتزاق ، فجعلت الأوقاف المدارس ملاجئ لصغيري النفوس والصعاليك ، أي أنه ذهب بعضهم لأجل الجراية لا لأجل العلم ، ومعروف أن بعض الطلبة ، إذا تأصلوا في بعض المعاهد ، لا يتركونها لما فيه من الجراية وراحة البدن من الدأب والعمل . ومما يزيد الطين بلة ،

استخدام بعض الرؤساء مثل نظام الملك وغيره ، الطلبة والعلماء والقفهاء لبث الدعوة له ولإدارته . ويقول المثل المعروف : إن الذي يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه ، وعلى الجملة ، فلا بد من القول : إن الأوقاف المدرسية والجرايات والمعاليم ، مع كل منفعتها وإفادتها ، عادت على التربية العربية بضرر يذكر .

و– وفي تعدادنا بعض عيوب التربية عند العرب ، لابد لنا من لفت الأنظار إلى سوء أخلاق بعض المعلمين ، ومن يقرأ الكتب العربية يصادف الذكر الكثير لسوء أدب الفقهاء والأدباء والمعلمين مع الأولاد ، ومع شهرة الكسائي كمعلم ومؤدب لأولاد الخليفة ، فإنه يذكر عنه أعمال قبيحة من الصبيان وكفاك بكتاب الأغاني شاهدا ، وللمقري حكايات عن المعلمين يخجل منها كل معلم يحمل ذلك الاسم ، وفي إحدى المخطوطات المحفوظة في برلين فصل عنوانه " في تحذير المعلم من نظر المرد الذين يعلمون " .

ز– وجدير بالذكر أخيرا ، أن التربية عند العرب لم تكن عامة ، ومع كثرة المدارس في المدن والقرى وانتشار العلم والأدب وعدة خزائن الكتب، فإن معظم العرب ظلوا أميين ، أي أن النظام المدرسي لم ينتفع به إلا قليلا ، نرى أن نسبة عدد المتعلمين اليوم في بيروت ودمشق والقاهرة والقدس لأكثر مما كانت في أرقى عصور الخلفاء ، ومن الصعب إثبات هذا الزعم بالأرقام لأنها ليست متوافرة لدينا الآن ، ولم تكن إذ ذاك .

حسنات التربية عند العرب

(أ) يجوز لنا أن نحكم على نظام التعليم بالنظر إلى نتائجه ولا ريب في أن أهم تلك النتائج هي الرجال التي يخرجها ذلك النظام التعليمي وتلك المدارس ، وإذا تأملنا قليلا في العلماء والأدباء الذين تخرجوا في المدارس العربية ، وكانوا خليفة نظام التربية عند العرب ، وجدناهم كثيري العدد ومستحقي الذكر ، فمن حسنات التربية العربية إذا تخريجها رجالا من أمثال الكندي والخوارزمي وابن سينا والفارابي والطبري وابن رشد والغزالي وابن خلدون وأبي العلاء والمتنبي وغيره ، وجدير بالذكر أن رجال العربي كانوا فحول زمانهم سواء كانوا في الشرق أو في الغرب ، ومما يدل على نبوغ رجال العرب الذين أنتجتهم التربية العربية ، كتبهم وتآليفهم في العالم إلى اليوم ، ومع أن بعضها لا يعتد به الآن لتقدم العلم الطبيعية ، فهي على كل حال كتب مهمة تظهر جدا ونشاطا ونبوغا وحبا للعلم والأدب .

(ب) وثاني الحسنات التي نود ذكرها ذلك المحيط الأدبي العلمي الذي أنعش الحياة الفكرية حيثما نطق القوم بالضاد ، ومن الخطأ حصر التربية والتعليم في تعلم ما هو في الكتب ، لأن نطاق التربية يشمل حسن الآداب واللطف والكياسة وحسن المحادثة ومطالعة الكتب المفيدة والولوع بالشعر والمناظرات والمباحثات الأدبية ، وكل هذه كانت موفورة عند متهذبي العرب ، وذلك من حسنات تربيتهم ، وقد قدر العرب الكتب والمكاتب والتأليف والأدب ، ويعلم الجميع ما دفعه

الحكم من الذهب لصاحب الأغاني ، والكل يعلم محبة العرب للكتب والمطالعة وكم أخذ بعضهم من صناديق الكتب في أسفارهم ، فرواج الأدب وكثرة الكتب النفيسة والمحاضرات ووجود محيط علمي أدبي ، لأكبر الأدلة على أن التربية ونظامها عاملان فعالان يقومان بوظيفتيهما حق القيام .

(ج) ومما يذكر بخير عن التربية عند العرب ديموقراطيتها ، فإن الجوامع والمدارس ودور العلم فتحت أبوابها لجميع الطبقات ، فمن الذين نبغوا رجال فقراء وأبناء العامة ، وكفى أمثلة الجاحظ وأحمد بن حنبل والغزالي الذين ولدوا في بيوت الفقر ، وبجدهم ونشاطهم وصلوا إلى مقامهم المعروف عند العرب . هذا ولابد من القول بأن الإسلام نفسه عامل ديمقراطي وإذا قابلناه بالمسيحية وجدناه أكثر ديمقراطية ، لأن بعض مسيحيي الغرب اليوم ، رغم كون الدين المسيحي ديموقراطيا بحتا ، لا يسمحون للزنوج بالعبادة في كنائسهم ، لمجرد كونهم زنوجا ، وهذا شئ لم يسمع به عند المسلمين .

(د) من حسنات التربية العربية في رأينا نظرتها الخاصة إلى التعليم ، وقد اختلفت تلك النظرة عن نظرة اليوم كان التعليم عند العرب ضربا من العبادة ، حتى أنه حرم بعضهم على المعلمين أخذ الأجرة ، لأنهم أبوا أن يخدموا الله في مقابل أجرة ، وكثيرا ما قال الغزالي وغيره أن التعليم يجب أن يكون لوجه الله أما اليوم فقد أصبح مهنة للتعيش ، وأخذ المعلمون ينظرون إلى وظيفتهم نظرة الصانع إلى صناعته ، والتاجر إلى

تجارته ، ولهذا نجد للمعلمين في الغرب نقابات كنقابات العمال . ولقد أضرب المعلمون عن العمل لأن عمالاتهم كانت قليلة . فإضراب المعلمين وتأليفهم النقابات ونظرهم إلى الطلبة نظر التاجر إلى البضاعة ، تدل على أنه التعليم لم يبق مهنة مقدسة يطلبها فيها المعلمون حبا وخدمة للعلم والإنسانية أو كما قال العرب " لوجه الله " . وفي رأينا أن هذه النظرة إلى التعليم تحط من مقامه وشرفه . فيجب أن يكون المثل الأعلى للعلم وتهذيب الأخلاق ونشر الحقيقة ، فالمعلم يعلم شغفا بالتعليم لا من أجل المعاش ، وجدير بمعلمي اليوم أن يحذوا حذو الغزالي وبستالوتزي من هذا القبيل .

كان شئ من هذا عند العرب ، فنرى أنه يجب عليهم المحافظة عليه، فالتعليم يتقدم إذا اعتبره المعلمون خدمة مقدسة ، ويتأخر إذا انخرطوا في سلكه للمعاش فقط ، ونقول في الختام إن المعلم الحقيقي لم يمنعه ذلك من الاستمرار في عمله المقدس ، وليت المثرين في الشبان والشابات ينتظمون في سلك التعليم ، لأن المعلم الثري الذي يتقد غيرة في خدمة الإنسانية خير من الصعلوك الذي لا يعلم إلا ليقبض عمالته في آخر كل شهر ، وليت التعليم يستبقي ثوب القداسة الذي ألبسه إياه معلمو العرب .

(هـ) وهناك ميزة أخرى من ميزات التعليم عند العرب وهي استقلال الأستاذ وكرامته ، فكان الطلبة يجتمعون كي يتلقوا العلوم من الأستاذ في المدرسة ، وقد افتخر التلامذة بإجازة وإمضاء وعلم أستاذهم وشيخهم ،

لا بمدرستهم . وكان المعلم حرا مستقلا ذا كرامة ، أما اليوم فقد أصبح آلة يدرس منهاجا يقرره غيره ، ويستعمل كتبا لا رأي له في اختيارها ، ويكره على اتباع أساليب تعليمية قد تشمئز منها نفسه ، فشتان ما بين هذا المسكين وذلك الأستاذ الحر الذي يفسح له كل المجال ليقوم بوظيفته بحسب مقدرته واختباره ووجدانه . ولا شك في أن كثرة المعلمين وازدياد عدد المدارس ومساس الحاجة إلى النظام والتنظيم واضطرار الناس إلى اتخاذ أساليب الجيش – هذه كلها تميت شخصية المعلم وتجعله آلة لا يصلح إلا لتلقي الأوامر وتنفيذها .

(و) ونذكر أخيرا الرحلة كمزية سادسة لنظام التعليم عند العرب ، ولا ريب في أنها مزية تستحق الذكر ، لما قامت به من الخدمات العلمية والإجتماعية والدينية والقومية للطالب نفسه وللأمة . فالرحلة والتحاك والسفر من أفضل العوامل لنزع الغرور من نفوس الطلبة ، إذ كثيرا ما ظن الطالب نفسه نابغة في بلده وفي مدرسته وبين أهله ، غير أنه إذا رحل وتجول رأى من كان أكبر منه وأعظم في كل الأمور ، فالرحلة توسع مدارك المرء وتجعله متسامحا غير متعصب ، وقد كانت بغداد ودمشق ومصر ملأى بالطلبة الوافدين من كل الآفاق ، ولا شك أن هذا نفع الطلاب كما أفاد تلك البلاد أيضا .

تناقض الآراء في فضل العرب على التعليم

كثيرا ما يقول بعض الإفرنج أن العرب لم يبتكروا ولم يولدوا شيئا جديدا ، بل إنهم نقلوا ما جادت به قريحة الإغريق ، ويلقب بعضهم العرب بالسماسرة لأنهم أخذوا العلم من اليونان وأعطوه لأوربا ، غير منتجين شيئا من أنفسهم ، وهاك ما قاله أحد أساتذة كامبردج عن الرياضياة عن العرب : " ومجمل القول إن العرب كانوا سريعين في تقدير علم غيرهم .. دامت مدارسهم نحو ٦٥٠ سنة . وإذا قابلنا خدماتهم العلمية بخدمات اليونان أو بخدمات الكتاب العصريين ، وجدنا خدمات العرب على وجه الإجمال من الطبقة الثانية كمية واتقانا "

ويرى اندره سرفيه " Annddre Servier " ألا فضل للعرب على العلم والتعليم والحضارة ، إذا لم تأت أعمالهم بشئ حسن وحسب نص الترجمة الانجليزية : أن الحياة العربية كادت تكون مجدبة " تقريبا عديمة الثمر Almost fruitess . هذا ويزعم ذلك الكاتب أن العرب لم يولدوا ولم يخترعوا إلا الإسلام ، وهو ما يسميه ب " إفراز الدماغ العرب Secretin of the arab brain "

هذان رأيان يمثلان فريقا من الإفرنج يعتقد أن العرب لم يفيدوا العالم والعلم والتاريخ إلا القليل ، وعدد من يعتقد هذا الاعتقاد ليس بقليل ، ولا شك في أن للتعصب الديني والقومي يدا في هذا العقيدة ، وأما الفريق الآخر في الغرب فيرى أن العرب قاموا بخدمات جليلة للعلم

وللحضارة ، ومن هؤلاء أستاذ ألماني في العلوم الطبيعية اسمه ويدمان (Wiedeman) . فهذا الأستاذ يقول ، مع أستاذين أميركيين ، إن اشتغال العرب بالعلم لم يقتصر على النقل عن اليونان ، فقد أضاف العرب إلى ما أخذوه من الإغريق شيئا كثيرا . ومن آراء هؤلاء الأساتذة أن العرب ربما كانوا أول من عرف شيئا عن المكبرات والعدسيات وممن يقدر فضل العرب خير تقدير المستشرق الإنجليزي ستانلي لاين بول Stanley lane poole والأستاذ الأميركي درابر Draper وغيرهم من الأساتذة الغربيين . وهذا وخلاصة بحثنا عن التربية عند العرب تجيز لنا القول بأن لهم فضلا على التربية عند الإفرنج وإليك بيانه :

١- خدم العرب التربية بمواد التدريس ، فمن درس الأمر لا يمكنه القول إن العرب إنما نقلوا عن الإغريق ، وكما إننا اليوم نغذي عقولنا بما نجده على موائد الإفرنج ، هكذا غدى الغربيون عقولهم بما سقط عن موائد العرب بدليل كثيرة المخطوطات اللاتينية الموجودة الآن والمنقولة عن العربية . ومادة التدريس التي جاء بها العرب شملت دروسا عديدة منها : الرياضيات والكيميا والطب والتاريخ والأدب والفلسفة ، ولولا هذه المواد الدراسية العربية لما كان لدى مدارس والإفريج شئ تعلمه لطلبتها .

٢- للعرب فضل في إنقاذ العالم من بلية الإرقام الرومانية وإبدالها بالأرقام الهندية التي يسميها الإفرنج " بالأرقام العربية " . نعم إن العرب نقلوها عن الهنود ، غير أنهم استعملوها وحسنوها وأدخلوها إلى أوربا .

٣- هذا وإذا بحثنا في أمر الكتب المدرسية ، وجدنا أن للعرب فضلا كبيرا في انشارها ، ويعاني معلمو الشرق اليوم الصعوبات التي لا تزال تقاسيها مدارسها لعدم وجود الكتب المدرسية في أمور التربية ، ومما لا ريب فيه أن العرب خدموا التربية بكثرة كتبهم في العصور المتوسطة . ومن المعرف أن كتب الرئيس ان سينا في الطب استعملت في جامعتي مونبيليه في فرنسا ولوفان في البلجيك إلى منتصف القرن السابع عشر . فقد كانت الكتب والمصادر العربية مرجعا ذا شأن عند الجامعات الأوربية في القرن الثالث عشر للمسيح .

٤- للعرب فضل على التربية لأنهم مهددوا الطريق للنهضة العلمية في أوروبا المعروفة بالرنسانس Renaissnce فإن الآداب اليونانية والروح اليونانية وثقافة الإغريق هي التي كان لها اليد الطولي في ظهور الرنساني ، والكل يعلم أن الغرب درس كثيرا من هذه الآداب اليونانية بواسطة الترجمات العربية ، عبد الأوربيون أرسطوا في القرون الوسطى ، ولكن كهنة أرسطو كانوا من رجال العرب مثل ابن رشد والفارابي وغيرهما .

٥- ومن أهم خدمات العرب للتربية التي ظهر فيها أكبر فضل لهم عليها ، إنارة الدنيا العلم وفتح المدارس والجوامع ودور الكتب ، فعندما كانت أوربا في ظلام دامس ، كانت البلاد العربية وحدها منارة بنور العالم من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر للمسيح . وكل من أراد أن يستنير بنور العلم اضطر إلى أن يؤم المدارس العربية ويأخذ عن مدرسي العرب ،

ولا شك في أن مدارس العرب ، في تلك القرون ، كانت تشبه مدارس الغرب اليوم ، يقصدها الطلبة فرادى وجماعات من كل صوب ، ولولا المدارس العربية وفضل العرب ، لما ظهرت الرنساني في الوقت الذي ظهرت فيه ، بل ربما كان العالم اليوم يشبه ما كان عليه قبل قرنين .

وجدير بالذكر أن الديانة المسيحية اضطهدت الآداب اليونانية لأنها حسبتها وثنية ، وكثيرا ما هدمت الهياكل الجميلة ، وأحرقت الكتب النفسية ، وطردت العلماء فالتجأو إلى زوايا الشرق حيث كان العلم في قيد الحياة . هذا فضل يذكر للعرب وللشرق أجمع ، فقد قام الشرقيون بدورهم في خدمة العلم خير قيام حتى شاخوا فانتقلت منهم الزعامة في رفع العلم إلى غيرهم .

٦- وأخيرا نذكر فضل العرب على التربية الاجتماعية التي بثوا الدعوة إليها في العلم ، إذ تتفق الآراء على انحطاط الحالة الاجتماعية في الغرب في العصور الوسطى ، ومن المعلوم أن الغرب افترش القش ، بينما كان الشرق يتنعم على الفرش ، وطلب الغرب الشفاء من عظام القديسين ، بينما أم العرب المارستانات حيث عالجهم الأطباء ، ولاقت أوربا شظف العيش ، في حين أن العرب تلذذوا السكر والفواكه وغيرهم من المأكولات ، وعلموا الغرب استعمال الأقمشة والأواني البيتية بدليل كثرة الكلمات العربية المستعملة اليوم في اللغات الأجنبية ، وربما كان تفوق الشرق على الغرب في ذلك الحين عظيم الشبه بتفوق الغرب على الشرق في عصرنا الحاضر .

هذا ما وقفنا عليه من أحوال التربية عند العرب وفضلهم عليها ، ولا شك في أن المستقبل سيظهر لنا أشياء جديدة لم نعثر عليها نحن، ومهما يكن من أمر، فلنا ملء الأمل أن العرب سينهضون مرة ثانية إلى رفع لواء العلم فسيضيئ العالم بنورهم وبعلمهم وبأخلاقهم والسلام .

مدارس دمشق لم نقف على تاريخها

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	ملاحظات
المنكلاتية		
المسرورية	الحصى شمس الخواص	
المجاهدية الخارجية	مسرور	
القيمرية الصغرى		
الغوصية		حلقة في الجامع الأموي
الفاتحية	شهاب الدين القوصي	
العمادية	الملك الغالب فتح الدين	
العزيزية	عماد الدين بن نور الدين	شرع فيها الملك الأفضل
الغلبيانية	اكملها العزيز	

مدارس دمشق في القرن التاسع للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	ملاحظات
الفخرية	الأستاذ فخر الدين	٨٢١	شافعية
الجقمقية	سيف الدين جقمق	١٤١٨	حنفية

الجزرية	ابن الجزري	٨٢٢	دار قرآن
الدلامية	زين الدين دلامة	١٤١٩	دار قرآن
الصابونية	ابن الصابوني	٨٣٤	دار قرآن
البهائية	بهاء الدين أبو محمد	١٤٣٠	دار حديث
الصمصامية	القاسم	٨٤٧	
الحاجبية		١٤٤٣	حنفية
الفجماسية	الأمير ناصر الدين الحاجب	٨٦٣	حنفية
	قجماس نائب سوريا	١٤٥٨	
	في القرن العاشر للهجرة	٨٦٨	
السبائية		١٤٦٣	حنفية
	سيباي نائب سوريا	٨٧٨	
		١٤٧٣	
		٨٩٢	
		١٤٨٦	
		٩١٥	
		١٥٠٩	

مدارس القدس في القرن الثامن للهجرة

اسم المدرسة	التاريخ	المنسوبة إليه
الأمينية	٧٣٠ ١٣٢٩	أمين الدين عبدالله
الفخرية	٧٣٢ ١٣٣١	القاضي فخر الدين
المنجكية	٧٦٢ ١٣٦٠	الأمير منجك
الملكية	٧٤١ ١٣٤٠	الحاج الملك الجوكندار
الجاولية	٧٤٥ ١٣٤٤	الأمير علم الدين الجاولي
الفارسية	٧٥٥ ١٣٥٤	الأمير فارس البكي بن قطلو ملك
الخاتونية	٧٥٥ ١٣٥٤	أغل خاتون بنت شمس الدين
الأرغونية	٧٥٨ ١٣٥٦	أرغون الكاملي نائب الشام
التشتمرية	٧٥٩ ١٣٥٧	الأمير تشتمر السيفي
دار القرآن السلامية	٧٦١ ١٣٥٩	سراج الدين السلامي
المحدثية	٧٦٢ ١٣٦٠	عبدالعزيز العجمي الأرديبلي المحدث

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
الأنايكية ١	بنت نور الدين أرسلان بن	٧٤٠	شافعية
الخليلية	زتابك	١٣٣٩	شافعية
المنجكية	سيف الدين الخليلي	٧٤٦	حنفية
	سيف الدين بن منجك بن	١٣٤٥	
	قلاوون	٧٧٦	
		١٣٧٤	
الفارسية	في القرن التاسع للهجرة		شافعية
الحليبة			شافعية
الخبيصية	سيف الدين فارس الدوادار		شافعية
الشاهينية		٨٠٨	شافعية
الأسعردية		١٤٠٥	شافعية
الآمدية	الزمير شاهين الدين الشجاعي	٨١٣	حنفية
	الخواجا ابراهيم بن مبارك شاه	١٤١٠	
	الأسعردي	٨١٤	
		١٤١١	
		٨١٦	
		١٤١٣	
		٨١٧	
		١٤١٤	
		٨٢١	
		١٤١٨	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	
المزهرية	أبو بكر بن مزهر	٨٨٥	١٤٨٠
الغادرية	الأمير ناصر الدين بن دلغادر	٨٩٧	١٤٩١
	مدارس في القدس لم نقف على تواريخها		
السنجرية	سنجر السيفي		
الموصلية	فخر الدين الموصلي		

مدارس دمشق في القرن السابع للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ		المذهب
العزيزية	الملك العزيز عثمان بن	٦٣٠	١٢٣٢	حنفية
الوجيهية	العادل	٦٣٠	١٢٣٢	دار القرآن
الجنونية	وجيه الدين بن الكجَي	٦٣٠	١٢٣٢	شافعية
الدماغية	شرف الدين الوزرزاري	٦٣٨	١٢٤٠	شافعية
البدرية	الملقب بالجنون	٦٣٨	١٢٤٠	حنفية
الكروسية	عائشة جدة ابن الدماغ	٦٤١	١٢٤٣	دار حديث
القليجية	الأمير بدر الدين	٦٤٣	١٢٤٥	حنفية
الصاحبية	ابن كروس	٦٤٣	١٢٤٥	حنبلية
الضيائية	سيف الدين القليج	٦٤٣	١٢٤٥	حنبلية
الضيائية	أخت صلاح الدين	٦٤٣	١٢٤٥	حنبلية
المحاسية	ضياء الدين بن عبدالرحمن	٦٤٩	١٢٥١	دار حديث
القلانسية	المقدسي			
	ضياء الدين المحاسن			
	ابن القلانسي			

مدارس دمشق في القرن السابع للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ		المذهب
الإقبالية ١	جمال الدين إقبال	٦٥٣	١٢٥٥	شافعية
العالمية	الشيخة العالمة أمة اللطيف	٦٥٣	١٢٥٥	حنبلية
المرشدية	بنت الملك المعظم ابن	٦٥٤	١٢٥٦	حنفية
الشبلية	العادل	٦٥٥	١٢٥٧	حنفية
العادلية	شبل الدولة كافور الحامي	٦٥٥	١٢٥٧	شافعية
الصغرى	زهرة خاتون بنت الملك	٦٥٧	١٢٥٨	مالكية
الصدرية	العادل	٦٥٧	١٢٥٨	شافعية
الطبرية	صدر الدين أبو الفتح	٦٦٣	١٢٦٤	
اليغمورية		٦٦٤	١٢٦٥	مدرسة طب
اللبودية	موسى بن يغمور الياروقي	٦٦٥	١٢٦٦	شافعية
القيمرية	يحيى بن اللبودي	٦٦٧	١٢٦٨	شافعية
النجيبية	ابن غزيز القيمري			
	النجيبي جمال الدين أقوش			

مدارس القدس

في القرن السادس للهجرة   والمرجع الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
الصلاحية	صلاح الدين	٥٨٨
الأفضلية	الملك الأفضل بن صلاح الدين	١١٩٢
	الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون	٥٨٩
	في القرن السابع للهجرة	١١٩٣
النحوية	الملك المعظم عيسى	٥٩٣
البدرية	بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاوي	١١٩٦
المعظمية	الملك المعظم عيسى	
دار الحديث	الأمير شرف الدين عيسى الهكاوي	٦٠٤
الدويدارية	الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله	١٢٠٧
	الدويدار	٦١٠
		١٢١٣
		٦١٤
		١٢١٧
		٦٦٦
		١٢٦٧
		٦٩٦
		١٢٩٦

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
الناصرية	تنسب للشيخ نصر المقدسي وقد أعادها الملك المعظم	٦١٠ ١٢١٣
	في القــــرن الثامـــــن للهجـــرة	
السلامية		بعد ٧٠٠
الوجيهية	مجد الدين أبو القدا اسماعيل السلامي	١٣٠٠
الكريمية	وجيه الدين	٧٠١ ١٣٠١
التنكزية	الصاحب عبدالكريم بن هبة الله	٧١٨ ١٣١٨
	الأمير تنكز الناصري	٧٢٩ ١٣٢٨

مدارس دمشق لم نقف على تاريخها

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
المنكلانية		
المسرورية	الخصي شمس الخواص مسرور	
المجاهدية الخارجية		
القميرية الصغرى		
القوصية	شهاب الدين القوصي	حلقة في الجامع الأموي
الفاتحية	الملك الغالب فتح الدين	
العمادية	عماد الدين بن نور الدين	
العزيزية	اكملها العزيز	
الظبيانية		شرع فيها الملك الأفضل

اسم المدرسة	المنسوبة إليه
الجاورخية	جاروخ التركماني
البهنسية	مجد الدين البهنسي وزير الملك الأشرف
الأمجدية	الملك المظفر بن الملك الأمجد
الأصفهانية	تاجر أصفهاني
المعيدية	ابن معيد البعلبكي
الصبابية	ابن الصباب
الشقيشقية	ابن الشقيشقة
السكرية	
الحمصية	صاحب حمص
البهائية	بهاء الدين أبو محمد القاسم
المقدسية	بناها الملك الأشرف وسماها على اسم جمال الدين بن مسرور المقدسي

مدارس حلب

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المرجع
الزجاجية	ابن أرطق	٤٨٧ –	ابن خلكان ١ : ٥٠٢
الأسدية	أسد الدين شيركوه	١٠٩٤	ابن خلكان ١ : ٣٩٣
مدرسة	أرملة الملك الظاهر	القرن السادس	
الفردوس	ابن رواحه الحموي		ابن خلكان ١ : ٣٩٣
الرواحية			معجم البلدان ١ : ١٨٠
مدرسة			معجم البلدان ٧ :
الزجاجين	ابن محمد		٢٦٣

مدرسة الحدادين خان النتن المعروف ابن الأيامي الكاملية الشرفية	شاه بخت شرف الدين أبو طالب	 القرن السادس القرن السادس القرن السابع	 معجم البلدان ٦ : ٣٦٥

مدارس دمشق في القرن السابع للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المرجع
الظاهرية	الملك الظاهر	٦٧٨	حنفية وشافعية
الداخلية	الصالح بن الملك العادل	١٢٧٩	شافعية
الصالحية	عماد الدين الريعي	٦٨٣	مدرسة طب
الربيعية	نجم الدين الجوهري	١٢٨٤	حنفية
الجوهرية	النفيس اسمعيل بن	٦٨٦	دار حديث
النفيسية	عبدالواحد الحراقي	١٢٨٧	
	في القرن الثامن للهجرة	٦٩٤	شافعية
الطقطاقية	السلطان طقطاي	١٢٩٤	شافعية
القواسية	الأمير عز الدين بن القواس	٦٩٦	مالكية
الشرابيشية	نور الدولة بن محاسن	١٢٩٦	دار قرآن
السنجارية	الشاربيشي		دار حديث
التنكزية	داود بن اسمعيل السنجاري	٦١٣	
	نائب السلطنة تنكز	١٣١٣	

		٧٣٣ ١٣٣٢ ٧٣٤ ١٣٣٣ ٧٣٥ ١٣٣٤ ٧٤٠ ١٣٣٩	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
	في القرن التاسع للهجرة	
الصيبية	الأمير علاء الدين نائب قلعة الصيبة	٨٠٩ ١٤٠٦
الغنزية	محمد شاه بن الغنزي	بعد ٨١٥ ١٤١٢
الكاملية	الحاج كامل	٨١٦ ١٤١٣
الطولونية	أحمد بن محمد الطولوني	٨٢٧ ١٤٢٤
الباسطية	القاضي زين الدين عبدالباسط	٨٣٤ ١٨٣٠
الحسنية	حسن الكشكيلي نائب القدس	٨٣٧ ١٤٣٤
العثمانية	امرأة من أكابر الروم اسمها اصفهان شاه خاتون	٨٤٠ ١٤٣٦
الجوهرية	الصفوى جوهر	٨٤٤ ١٤٤٠
الأشرفية	الملك الأشرف قايتباي	٨٨٠ ١٤٧٥

مدارس دمشق

لم نقف على تاريخها

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
المنجانية	ابن المنجي	
الجاموسية		
الصلاحية	صلاح الدين	
الزاوية	صلاح الدين	
النورية الصغرى	نور الدين	
القاهرية		
الفتحية	فتح الدين الملك	
العزية	عز الدين	
السفينية		في الجامع الأموي
الجمالية	جمال الدين يوسف	في داخل الجامع
الجلالية	قاضي القضاه جلال الدين أبو المفاخر	الأموي

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	
الحسنية	شاهين الحسني الطواشي	٧٦٢	١٣٦٠
الطازية	الأمير طاز	٧٦٣	١٣٦١
الفارسية	الأمير فارس الدين وهي مدرسة ثانية غير الأولى	٧٥٥	١٣٥٤
الباوردية	الست سفري خاتون عرف والدها بالبارودي	٧٦٨	١٣٦٦
الأسعردية	مجد الدين عبدالغني الأسعردي	٧٧٠	١٣٦٨
الحنبلية	الأمير بيدمر الخوارزمي	٧٧٧	١٣٧٥
اللؤلؤية	الأمير لؤلؤ غازي	٧٨١	١٣٧٩
البلدية	الأمير منكلي بغا نائب حلب	٧٨٢	١٣٨٠
الجهاركسية	الأمير جهاركس الخليلي	٧٩١	١٣٨٨

مدارس دمشق في القرن السابع للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
العزيزية	الملك العزيز عثمان بن العادل	٦٣٠	حنفية
الوجيهية	وجيه الدين بن الكجي	١٢٣٢	دار للقرآن
الجنونية	شرف الدين الوزرزاري الملقب	٦٣٠	شافعية
الدماغية	بالمجنون	١٢٣٢	شافعية
البدرية	عائشة جدة ابن الدماغ	٦٣٠	حنفية
الكروسية	الأمير بدر الدين	١٢٣٢	دار حديث
القتيجية	ابن كروس	٦٣٨	حنفية
الصاحبية	سيف الدين القليج	١٢٤٠	حنفية

الضيائية	أخت صلاح الدين	٦٣٨	حنفية
الضيائية	ضياء الدين بن عبدالرحمن	١٢٤٠	حنفية
المحاسبة	المقدسي	٦٤١	دار حديث
القلانسية	ضياء الدين المحاسن	١٢٤٣	
	ابن القلانسي	٦٤٣	
		١٢٤٥	
		٦٤٣	
		١٢٤٥	
		٦٤٣	
		١٢٤٥	
		٦٤٣	
		١٢٤٥	
		٦٤٩	
		١٢٥١	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
الإقبالية ١	جمال الدين إقبال	٦٥٣	شافعية
العالمية	الشيخة العالمة أمة اللطيف	١٢٥٥	حنبلية
المرشدية	بنت الملك المعظم ابن العادل	٦٥٣	حنفية
الشبلية	شبل الدولة كافور الحامي	١٢٥٥	حنفية
العادلية	زهرة خاتون بنت الملك العادل	٦٥٤	شافعية
الصغرى	صدر الدين أبو الفتح	١٢٥٦	مالكية
الصدرية		٦٥٥	شافعية
الطبرية	مرسي بن يغمور الياروقي	١٢٥٧	

اليغمورية	يحيى بن اللبودي	٦٥٥	مدرسة طب
اللبودية	ابن عزيز القيمري	١٢٥٧	شافعية
القيمرية	النجيبي جمال الدين أقوش	٦٥٧	شافعية
النجيبية		١٢٥٨	
		٦٥٧	
		١٢٥٨	
		٦٦٣	
		١٢٦٤	
		٦٦٤	
		١٢٦٥	
		٦٦٥	
		١٢٦٦	
		٦٦٧	
		١٢٦٨	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
الظاهرية	الملك الظاهر	٦٧٨	حنفية وشافعية
الداخلية	الصالح بن الملك العادل	١٢٧٩	شافعية
الصالحية	عماد الدين الربعي	٦٨٣	مدرسة طب
الربيعية	نجم الدين الجوهري	١٢٨٤	حنفية
الجوهرية	النفيس اسمعيل بن	٦٨٦	دار حديث
النفيسية	عبدالواحد الحزافي	١٢٨٧	
	في القرن الثامن للهجرة	٦٩٤	شافعية
الطقطائية	السلطان طقطاي	١٢٩٤	شافعية

القواسية	الأمير عز الدين بن القواس	٦٩٦	مالكية
الشرابيشية	نور الدولة بن محاسن	١٢٩٦	دار قرآن
السنجارية	الشاربيشي		دار حديث
التنكزية	داود بن اسمعيل السنجاري	٧١٣	
	نائب السلطنة تنكز	١٣١٣	
		٧٣٣	
		١٣٣٢	
		٧٣٤	
		١٣٣٣	
		٧٣٥	
		١٣٣٤	
		٧٤٠	
		١٣٣٩	

مدارس دمشق في القرن الثامن للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
الأنابكية ١	بنت نور الدين ارسلان بن زئابك	٧٤٠	شافعية
الخليلية	سيف الدين الخليلي	١٣٣٩	شافعية
المنجكية	سيف الدين بن منجك بن	٧٤٦	حنفية
	قلاوون	١٣٤٥	
الفارسية	في القرن التاسع للهجرة	٧٧٦	شافعية
الحلبية	سيف الدين فارس الدوادار	١٣٧٤	شافعية
الخبيصية			شافعية

الشاهينية		٨٠٨	شافعية
الأسعردية	الزمير شاهين الدين الشجاعي	١٤٠٥	شافعية
الآمدية	الخواجا ابراهيم بن مبارك شاه	٨١٣	حنفية
	الأسعردي	١٤١٠	
		٨١٤	
		١٤١١	
		٨١٦	
		١٤١٣	
		٨١٧	
		١٤١٤	
		٨٢١	
		١٤١٨	

مدارس دمشق في القرن التاسع للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
الفخرية	الأستاذ فخر الدين	٨٢١	شافعية
الجقمقية	سيف الدين جقمق	١٤١٨	حنفية
الجزرية	ابن الجزري	٨٢٢	دار قرآن
الدلامية	زين الدين دلامة	١٤١٩	دار قرآن
الصابونية	ابن الصابوني	٨٣٤	دار قرآن
البهائية	بهاء الدين أبو محمد القاسم	١٤٣٠	دار حديث
الصمصامية		٨٤٧	
الحاجبية	الأمير ناصر الدين الحاجب	١٤٤٣	حنفية

القجماسية	قجماس نائب سوريا	٨٦٣	حنفية
	في القرن العاشر للهجرة	١٤٥٨	
السبائية	سيباي نائب سوريا		حنفية
		٨٦٨	
		١٤٦٣	
		٨٧٨	
		١٤٧٣	
		٨٩٢	
		١٤٨٦	
		٩١٥	
		١٥٠٩	

مدارس دمشق لم نقف على تاريخها

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	ملاحظات
المنجائية	ابن المنجي	
الجاموسية		
الصلاحية	صلاح الدين	
الزاوية	صلاح الدين	
النورية الصغرى	نور الدين	
القاهرية		
الفتحية	فتح الدين الملك	
العزية	عز الدين	

السفينية		في الجامع الأموي
الجمالية	جمال الدين يوسف	في داخل الجامع الأموي
الجلالية	قاضي القضاه جلال الدين أبو المفاخر	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	ملاحظات
المنكلانية		
المسرورية	الخصي شمس الخواص مسرور	
المجاهدية		
الخارجية		
القيمرية الصغرى		
القوصية	شهاب الدين القوصي	حلقة في الجامع الأموي
الفاتحية	الملك الغالب فتح الدين	
العمادية	عماد الدين بن نور الدين	
العزيزية	أكملها العزيز	شرع فيها الملك الأفضل
الظبيانية		

المنسوبة إليه	اسم المدرسة
جاروخ التركماني	الجاروخية
مجد الدين البهنسي وزير الملك الأشرف	البهنسية
الملك المظفر بن الملك الأمجد	الأمجدية
تاجر أصفهاني	الأصفهانية
ابن معيد البعلبكي	المعيدية
ابن الصباب	الصبابية
ابن الشقيشقة	الشقيشقية
	السكرية
صاحب حمص	الحمصية
بهاء الدين أبو محمد القاسم	البهائية
بناها الملك الأشرف وسماها على اسم جمال الدين بن مسرور المقدسي	المقدسية

مدارس القدس

في القرن السادس للهجري والمرجع الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل

التاريخ	المنسوبة إليه	اسم المدرسة
٥٨٨ ١١٩٢	صلاح الدين	الصلاحية
٥٨٩ ١١٩٣	الملك الأفضل بن صلاح الدين	الأفضلية
٥٩٣ ١١٩٦	الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون	الميمونية
	في القـــــرن الســـــابع	
٦٠٤ ١٢٠٧	للهجـــــرة	النحوية
٦١٠ ١٢١٣	الملك المعظم عيسى	البدرية

المعظمية	بدر الدين محمد بن أبي القاسم	٦١٤ ١٢١٧
دار الحديث	الهكاوي	٦٦٦ ١٢٦٧
الدويدارية	الملك المعظم عيسى	٦٩٦ ١٢٩٦
	الأمير شرف الدين عيسى الهكاوي	
	الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله	
	الدويدار	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
الناصرية	تنسب للشيخ نصر المقدسي وقد أعادها	٦١٠ ١٢١٣
	الملك المعظم	
السلامية	في القرن الثامن للهجرة	بعد ٧٠٠
الوجيهية	مجد الدين أبو الفدا اسماعيل السلامي	١٣٠٠
الكريمية	وجيه الدين	٧٠١ ١٣٠١
التنكزية	الصاحب عبدالكريم بن هبة الله	٧١٨ ١٣١٨
	الأمير تنكز الناصري	٧٢٩ ١٣٢٨

مدارس القدس في القرن الثامن للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
الأمينية	أمين الدين عبدالله	٧٣٠ ١٣٢٩
الفخرية	القاضي فخر الدين	٧٣٢ ١٣٣١
المنجكية	الأمير منجك	٧٦٢ ١٣٦٠
الملكية	الحاج الملك الجوكندار	٧٤١ ١٣٤٠
الجاولية	الأمير علم الدين الجاولي	٧٤٥ ١٣٤٤

الفارسية	الأمير فارس البكي بن قطلو ملك	٧٥٥	١٣٥٤
الخاتونية	أغل خاتون بنت شمس الدين	٧٥٥	١٣٥٤
الأرغونية	أرغون الكاملي نائب الشام	٧٥٨	١٣٥٦
التشتمرية	الأمير تشتمر السيفي	٧٥٩	١٣٥٧
دار القرآن	سراج الدين السلامي	٧٦١	١٣٥٩
السلامية	عبدالعزيز العجمي الأرديبلي المحدث	٧٦٢	١٣٦٠
المحدثية			

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	
الحسنية	شاهين الحسني الطواشي	٧٦٢	١٣٦٠
الطازية	الأمير طاز	٧٦٣	١٣٦١
الفارسية	الأمير فارس الدين وهي مدرسة ثانية	٧٥٥	
	غير الأولى	١٣٥٤	
الباوردية	الست سفري خاتون		
	عرف والدها بالبارودي	٧٦٨	١٣٦٦
الأسعردية	مجد الدين عبدالغني الأسعردي		
الحنبلية	الأمير بيدمر الخوارزمي	٧٧٠	١٣٦٨
اللؤلؤية	الأمير لؤلؤ غازي	٧٧٧	١٣٧٥
البلدية	الأمير منكلي بغا نائب حلب	٧٨١	١٣٧٩
الجهاركسية	الأمير جهاركس الخليلي	٧٨٢	١٣٨٠
		٧٩١	١٣٨٨

التاريخ	المنسوبة إليه	اسم المدرسة
	في القرن التاسع للهجرة	
١٤٠٦ ٨٠٩	الأمير علاء الدين نائب قلعة الصبيبة	الصبيبة
بعد ٨١٥	محمد شاه بن العنزي	الغنزية
١٤١٢	الحاج كامل	الكاملية
١٤١٣ ٨١٦	أحمد بن محمد الطولوني	الطولونية
١٤٢٤ ٨٢٧	القاضي زين الدين عبدالباسط	الباسطية
١٨٣٠ ٨٣٤	حسن الكشكيلي نائب القدس	الحسنية
١٤٣٤ ٨٣٧	امرأة من أكابر الروم اسمها اصفهان	العثمانية
١٤٣٦ ٨٤٠	شاه خاتون	
	الصقوي جوهر	الجوهرية
١٤٤٠ ٨٤٤	الملك الأشرف قايتباي	الأشرفية
١٤٧٥ ٨٨٠		

التاريخ	المنسوبة إليه	اسم المدرسة
١٤٨٠ ٨٨٥	أبو بكر بن مزهر	المزهرية
١٤٩١ ٨٩٧	الأمير ناصر الدين بن دلغادر	الغادرية
	مدارس في القدس لم تقف على	
	تواريخها	السنجرية
	سنجر السيفي	الموصلية
	فخر الدين الموصلي	

مدارس حلب

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المرجع
الزجاجية	ابن أرطق	٤٨٧ –	ابن خلكان ١ :
الأسدية	أسد الدين شيركوه	١٠٩٤	٥٠٢
مدرسة الفردوس	أرملة الملك الظاهر	القرن	ابن خلكان ١ :
الرواحية	ابن رواحه الحموي	السادس	٣٩٣
مدرسة			
الزجاجين			ابن خلكان ١ :
مدرسة	ابن محمد		٣٩٣
الحدادين	شاه بخت		معجم البلدان ١
خان النتن			١٨٠ :
المعروف			معجم البلدان ٧
ابن الأيامى	شرف الدين أبو طالب	القرن	٢٦٣ :
الكاملية		السادس	
الشرفية		القرن	
		السادس	معجم البلدان ٦
		القرن السابع	٣٦٥ :

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المرجع
السلطانية	شهاب الدين طغرل	القرن	
الظاهرية		السابع	
الشافعية			معجم البلدان ٧
مدرسة ابن	ابن العجمي		: ١٠١
العجمي	مدارس حماه		
	عمة مؤنسة خاتون بنت		
الخاتونية	الملك المظفر	القرن	أبو الفدا ٣ :
		السابع	١٤٤
	مدارس بيروت		(طبع مصر)
مدرسة بني	بني الحمرا		
الحمرا		القرن التاسع	تاريخ بيروت ص
			١٤٩

مدارس دمشق في القرن الثامن للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
الأنابكية	بنت نور الدين أرسلان بن زنابك	٧٤٠	شافعية
الخليلية	سيف الدين الخليلي	١٣٣٩	شافعية
المنجكية	سيف الدين بن منجك بن	٧٤٦	حنفية
	قلاوون	١٣٤٥	
		٧٧٦	
الفارسية	في القرن التاسع للهجرة	١٣٧٤	شافعية

الحلبية	سيف الدين فارس الدوادار		شافعية
الخبيصية			شافعية
الشاهينية		٨٠٨	شافعية
الأسعردية	الزمير شاهين الدين الشجاعي	١٤٠٥	شافعية
الآمدية	الخواجا ابراهيم بن مبارك شاه	٨١٣	حنفية
	الأسعردي	١٤١٠	
		٨١٤	
		١٤١١	
		٨١٦	
		١٤١٣	
		٨١٧	
		١٤١٤	
		٨٢١	
		١٤١٨	

مدارس دمشق في القرن التاسع للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ	المذهب
الفخرية	الأستاذ فخر الدين	٨٢١	شافعية
الجقمقية	سيف الدين جقمق	١٤١٨	حنفية
الجزرية	ابن الجزري	٨٢٢	دار قرآن
الدلامية	زين الدين دلامة	١٤١٩	دار قرآن
الصابونية	ابن الصابوني	٨٣٤	دار حديث
البهائية	بهاء الدين أبو محمد القاسم	١٤٣٠	

الصمصامية		٨٤٧	
الحاجبية	الأمير ناصر الدين الحاجب	١٤٤٣	حنفية
القجماسية	قجماس نائب سوريا	٨٦٣	حنفية
	في القرن العاشر للهجرة	١٤٥٨	
السبائية	سيباي نائب سوريا		حنفية
		٨٦٨	
		١٤٦٣	
		٨٧٨	
		١٤٧٣	
		٨٩٢	
		١٤٦٨	
		٩١٥	
		١٥٠٩	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
	في القـــرن التـــاسع للهجـــرة	
الصيبية	الأمير علاء الدين نائب قلعة الصيبة	٨٠٩ ١٤٠٦
الغنزية	محمد شاه بن الغنزي	بعد ٨١٥
الكاملية	الحاج كامل	١٤١٢
الطولونية	أحمد بن محمد الطولوني	٨١٦ ١٤١٣
الباسطية	القاضي زين الدين عبدالباسط	٨٢٧ ١٤٢٤
الحسنية	حسن الكشكيلي نائب القدس	٨٣٤ ١٨٣٠
العثمانية	امرأة من أكابر الروم اسمها اصفهان	٨٣٧ ١٤٣٤
	شاه خاتون	٨٤٠ ١٤٣٦

الجوهرية	الصفوي جوهر	
الأشرفية	الملك الأشرف قايتباي	٨٤٤ ١٤٤٠
		٨٨٠ ١٤٧٥

مدارس القدس في القرن الثامن للهجرة

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
الأمينية	أمين الدين عبدالله	٧٣٠ ١٣٢٩
الفخرية	القاضي فخرالدين	٧٣٢ ١٣٣١
المنجكية	الأمير منجك	٧٦٢ ١٣٦٠
الملكية	الحاج الملك الجوكندار	٧٤١ ١٣٤٠
الجاولية	الأمير علم الدين الجاولي	٧٤٥ ١٣٤٤
الفارسية	الأمير فارس البكي بن قطلو ملك	٧٥٥ ١٣٥٤
الحاتونية	أغل خاتون بنت شمس الدين	٧٥٥ ١٣٥٤
الأرغونية	أرغون الكاملي نائب الشام	٧٥٨ ١٣٥٦
التشتمرية	الأمير تشتمر السيفي	٧٥٩ ١٣٥٧
دار القرآن السلامية	سراج الدين السلامي	٧٦١ ١٣٥٩
المحدثية	عبدالعزيز العجمي الأرديبلي المحدث	٧٦٢ ١٣٦٠

مدارس دمشق لم نقف على تاريخها

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	ملاحظات
المنجائية	ابن المنجي	
الجاموسية		

الصلاحية	صلاح الدين	
الزاوية	صلاح الدين	
النورية الصغرى	نور الدين	
القاهرية		
الفتحية	فتح الدين الملك	
العزية	عز الدين	
السفينية		في الجامع الأموي
الجمالية	جمال الدين يوسف	في داخل الجامع الأموي
الجلالية	قاضي القضاه جلال الدين أبو المفاخر	

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ
الناصرية	تنسب للشيخ نصر المقدسي وقد أعادها الملك المعظم	٦١٠ ١٢١٣
السلامية	في القرن الثامن للهجرة	بعد ٧٠٠
الوجيهية	مجد الدين أبو الفدا اسماعيل السلامي	١٣٠٠
الكريمية	وجيه الدين	٧٠١ ١٣٠١
التنكزية	الصاحب عبدالكريم بن هبة الله	٧١٨ ١٣١٨
	الأمير تنكز الناصري	٧٢٩ ١٣٢٨

مدارس القدس

في القرن السادس للهجرة والمرجع الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	التاريخ

الصلاحية	صلاح الدين	٥٨٨	
الأفضلية	الملك الأفضل بن صلاح الدين	١١٩٢	
الميمونية	الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون	٥٨٩	١١٩٣
	في القرن السابع للهجرة	٥٩٣	١١٩٦
النحوية	الملك المعظم عيسى		
البدرية	بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاوي	٦٠٤	١٢٠٧
المعظمية	الملك المعظم عيسى	٦١٠	١٢١٣
دار الحديث	الأمير شرف الدين عيسى الهكاوي	٦١٤	١٢١٧
الدوريدارية	الأمير علم الدين سنجز بن عبدالله الدويدار	٦٦٦	١٢٦٧
		٦٩٦	
		١٢٩٦	

مدارس دمشق لم نقف على تاريخها

اسم المدرسة	المنسوبة إليه
الجاروخية	جاروخ التركماني
البهنسية	مجد الدين البهنسي وزير الملك الأشرف
الأمجدية	الملك المظفر بن الملك الأمجد
الأصفهانية	تاجر أصفهاني
المعيدية	ابن معيد البعلبكي
الصبابية	ابن الصباب
الشقيشقية	ابن الشقيقية
السكرية	
الحمصية	صاحب حمص
البهائية	بهاء الدين أبو محمد القاسم

المقدسية	بناها الملك الأشرف وسماها على اسم جمال الدين بن مسرور المقدسي

اسم المدرسة	المنسوبة إليه	ملاحظات
المنكلانية		
المسرورية	الخصي شمس الخواص مسرور	
المجاهدية		
الخارجية		
القيمرية		
الصغرى		
القوصية		
الفاتحية	شهاب الدين القوصي	حلقة في الجمع الأموي
العمادية	الملك الغالب فتح الدين	
العزيزية	عماد الدين بن نور الدين	
الظبيانية	اكملها العزيز	شرع فيها الملك الأفضل

الفهرس